الكشوف الجغرافية في إفريقيا

على الرغم من قرب قارة إفريقيا من قارة أوربا، إلا أن الأوربيين ظلوا يطلقون على إفريقيا اسم (القارة المظلمة). ويرجع السبب في ذلك إلى أنهم كانوا لا يعرفون من إفريقيا سوى الجزء الشمالي منها المطل على البحر المتوسط، وذلك بحكم قربه منهم، وكثرة تجارتهم على طول ساحله.

خريطة توضح قرب قارة إفريقيا من قارة أوروبا

والحقيقة أن إفريقيا لم تكن مظلمة، كما أطلق عليها الأوربيون، وهذه التسمية إن دلت على شيء فإنما تدل على جهل الأوربيين أنفسهم وعجزهم عن ارتياد تلك القارة والتعرف عليها.. وعلى حضارتها العريقة، التي تفوق حضارات أوروبا عراقة وتطورًا.

لقد شهدت إفريقيا هجرات وحركات أدت إلى قيام العديد من الممالك والإمبراطوريات.. من هذه الهجرات ما قام به البربر في المغرب حين اتجهوا جنوبًا صوب الصحراء، ونشروا الإسلام وسط القارة، وأقاموا الممالك الإسلامية.

وعلى الساحل الشرقي للقارة، حيث استقر العرب هناك منذ زمن طويل، وأقاموا العديد من السلطنات التجارية، التي قامت بدور الوسيط التجاري بين سكان القارة في الداخل من جهة، والشعوب الأوروبية والآسيوية من جهة أخرى.. وكان لهذه السلطنات الفضل الكبير في مساعدة المستكشفين والرحالة الأوربيين في عبور القارة والتوغل داخلها.

كما حفل جنوب القارة بالعديد من الحضارات التي لا تزال آثارها شاهدة على عظمتها، كتلك التي قامت على ضفاف نهر الزمبيزي.. هذا، بالإضافة إلى مملكة الحبشة المسيحية، شرقي القارة، والتي كانت من أهم العوامل التي أدت إلى التدخل الأوربي في إفريقيا، بحجة حماية تلك المملكة من المد الإسلامي.

لقد ظل الأوربيون حتى بداية القرن السابع عشر، لا يعرفون عن وسط إفريقيا وجنوبها سوى النذر اليسير، على الرغم من انتشار مراكزهم التجارية على طول سواحل القارة.

وهنا يبرز سؤالان:

- لماذا تأخر الأوربيون في كشف مجاهل إفريقيا؟
- ما هي دوافع الأوربيين للقيام بهذه الكشوف؟

ولنبدأ أولًا بالإجابة عن السؤال الثاني..

الدوافع الأوربية للكشوف الجغرافية في إفريقيا

دوافع عديدة ومتنوعة أدت بالأوربيين إلى الدفع بخيرة شبابهم من المستكشفين والمغامرين في مجاهل إفريقيا، في تحدٍّ كبير لا يخلو من مخاطر جمة.. ولعل أهم تلك الدوافع:

1 - الدافع التبشيري:

ولعله أهم الدوافع، والذي يمثل الشرارة الأولى لتلك الكشوف.. وكان امتدادًا طبيعيًا للحروب الصليبية، وكذا الصراع بين العرب المسلمين والمسيحيين في شبه جزيرة أيبيريا، والذي أدى إلى خروج المسلمين من تلك الجزيرة عام 1492، إذ لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل قرّر البرتغاليون والأسبان ملاحقة المسلمين في شمال إفريقيا، وجعلوا من ذلك حربًا دينية تُرضي السماء، حتى إن النساء في لشبونة كن يحرضن أزواجهن على السفر وخوض البحر لقتال العرب المسلمين، ويدفعن حليهن عن طيب خاطر لتجهيز السفن.. بل كانت الفتاة ترفض الزواج ممن لم يركب البحر ويقاتل المسلمين!!

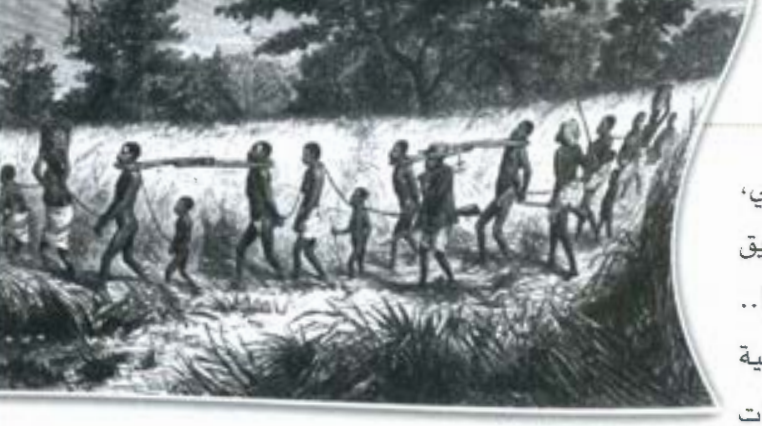

شحن العبيد إلى العالم الجديد

وتحالف الأوربيون مع ملك الحبشة المسيحي، هناك في أقصى شرقي إفريقيا، وذلك لتطويق المسلمين، وقد لاقى هذا التحالف مباركة البابا.. وشهدت أوربا سباقًا محمومًا لنشر المسيحية (الكاثوليكية) في إفريقيا، فأنشئت الجمعيات التبشيرية، وعلى رأسها الجمعية الإفريقية في لندن التي تكفلت بإرسال المبشرين المؤهلين لهذا الغرض، ومن أمثلتهم الطبيب والمبشر الأسكتلندي ليفنجستون.

يقول أحدهم، وهو المبشر والطبيب الأسكتلندي (منجو بارك)، وهو يخوض مجاهل إفريقيا، وقد أفزعه ما شاهد: (إن دين محمد له القدرة على الانتشار بوسائل أكثر فاعلية، وذلك بإنشاء كتاتيب في المدن المختلفة، حيث يتعلم الأطفال الوثنيون والمسلمون، على حد سواء، قراءة القرآن وسنة محمد).. ثم يقول:

(وقد زرت كثيرًا من هذه الكتاتيب في أثناء تقدمي في المنطقة، ولاحظت ما يتحلى به التلاميذ من طاعة مطلقة).. ثم يعود ليفصح عما في نفسه فيقول: (لكنني وددت من كل قلبي أن لو كانوا يتعلمون دروسًا أفضل ودينًا أنقى)[1].

وكلام (منجو بارك) واضح لا يحتاج إلى توضيح، وشهادة دامغة لا تحتاج إلى توثيق!!

2 - تجارة الرقيق:

ولعل أصدق دليل على هذا الدافع، هو تلك المراكز التجارية التي أقامها الأوربيون على طول السواحل الإفريقية، حيث كانوا يجمعون الأفارقة قسرًا، أو اصطيادهم كالحيوانات، ليتم شحنهم إلى أوربا بحجة تعليمهم وتثقيفهم، وتعريفهم بالمسيحية، ثم العودة بهم إلى بلادهم.. ولم يكن ذلك صحيحًا، بل كان الأوربيون يبيعون الأفارقة في أسواق النخاسة الأوربية.. وكان ذلك يُعد من أرْوج التجارات آنذاك، وزاد رواجها بعد اكتشاف العالم الجديد (الأمريكيتين)، حيث كان يتم شحن هؤلاء الأفارقة الزنوج للعمل هناك في المزارع والمناجم، وقدّر بعض المؤرخين عدد من تم شحنهم من الأفارقة الزنوج إلى الأمريكتين بنحو 80 مليونًا، لم يصل منهم إلى هناك حيًّا سوى 40 مليونًا.. بينما مات الآخرون في عرض البحر جوعى ومرضى!!

3 - الدافع الاقتصادي:

والمتمثل في استغلال ثروات القارة، كالذهب والماس في جنوبها.. والمطاط وزيت النخيل في الغرب.. والقطن والشاي والقرفة في شرقها.. وتحويل القارة إلى سوق لتصريف هذه الثروات بعد تصنيعها في أوربا.. إذ كان على بريطانيا -على سبيل المثال- بعد أن فقدت مستعمراتها في العالم الجديد، أن تبحث عن أسواق استهلاكية جديدة لتوزيع سلعها، إذ بعد نجاح الثورة الأمريكية في القرن الثامن عشر، فقدت بريطانيا سوقًا كبيرة، وكان عليها حينئذ البحث عن أسواق بديلة، ورأت أن إفريقيا أنسب تلك الأسواق، لذا

[1] أشهر الرحلات إلى غرب إفريقيا، تأليف س.هوارد، ترجمة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، إصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب.. سلسلة الألف كتاب الثاني.

شجعت مغامريها على الذهاب إلى هناك للكشف عن المناطق المجهولة، ويعتبر (ليفنجستون) أفضل من قام بهذه المهمة، ولقد سال لعابه أمام الثروات الإفريقية الهائلة، ودعا بريطانيا لاحتلال إفريقيا، حيث يقول: (والآن أصبحت إفريقيا مكتشفة فعليكم أن تفتحوا طريقًا للتجارة، ولنشر المسيحية بين القبائل الوثنية).

△ استخراج عصارة المطاط من الأشجار

وجاء من بعده (سيسل رودس)، الذي كان يحلم بأن تتوحد إفريقيا من شمالها إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها، تحت العلم البريطاني!!

4 - الدافع الاستعماري وتوسيع مناطق النفوذ:

وهو وثيق الصلة بالدافع الاقتصادي، وهو دافع لا يمكن إغفاله، وإن حاول الأوربيون إنكاره.. لقد شهدت القارة سباقًا استعماريًا محمومًا بعد أن كشفت الرحلات ما بداخل القارة من ثروات هائلة، وتم تقسيم القارة بين القوى الاستعمارية الأوربية، وذلك في مؤتمر برلين عام 1884.. كان كثير من المستكشفين يدفعهم أهداف وأغراض استعمارية، أمثال (برازا) الضابط الفرنسي الذي ارتاد حوض نهر أجوا في بعثتين عام 1875، 1880.. والطبيب الألماني (جوستاف ناختجال) الذي سعى لإعلان محمية توجو الألمانية عام 1884.

5 - الدافع الشخصي:

وهو دافع يرجع إلى شخصية المستكشف، وحبه للمغامرات واستكشاف المجهول، إما رغبة في الشهرة، أو الثراء، أو هما معًا، وغير ذلك من السمات الشخصية.

ولذا، كان على المستكشفين في هذه الحالة أن يكونوا على علم بما يمكن أن يلاقوه من مصاعب وأهوال، فيعدوا للأمر عدته، كتعلم اللغات واللهجات الإفريقية المختلفة، ودراسة أحوال القبائل الإفريقية وعاداتها، والإلمام بالأمراض السائدة هناك وكيفية الوقاية والعلاج منها.

ثم نأتي بعد ذلك للإجابة عن السؤال الأول، وهو:

لماذا تأخر الأوربيون في كشف مجاهل إفريقيا؟

هناك تبريرات كثيرة لهذا التأخر.. لعل أهمها يعود إلى قصور وسائل المواصلات التي كان يعتمد عليها الأوربيون.. ثم إلى اقتصادهم الزراعي الذي ألفوا الاعتماد عليه طوال العصور الوسطى، والذي كان يهدف إلى مجرد سد حاجة السكان، علاوة على النظام السياسي الذي اعتمده الملوك والأمراء لحكم رعاياهم، وهو نظام الإقطاع، حتى إذا تدهور هذا النظام، وبدأت التجارة تحتل مكانها في الاقتصاد الأوربي، وأخذت النزعة القومية تظهر واضحة بين الشعوب، بدأت حركة الكشف الجغرافي الكبرى، والتي قاد لواءها الأمير هنري الملاح[1].

وبالإضافة إلى ذلك فهناك بعض المعوقات التي واجهت المستكشفين، من أهمها:

طبيعة القارة وتضاريسها:

كان لجهل الأوربيين بطبيعة إفريقيا أثر بالغ في تأخرهم عن خوض غمارها، واكتشاف مجاهلها.. هذا فضلاً عما كان يكتنف القارة من خرافات سيطرت على عقول الأوربيين، كحقائق ثابتة، فترة طويلة من الزمن.

وعندما ثبت بطلان تلك الخرافات وحاول الأوربيون ارتياد القارة كانت طبيعة القارة وتضاريسها من أهم العوائق التي واجهتهم.. إذ تعتبر القارة شبه جزيرة ضخمة، سطحها عبارة عن هضبة يتوسطها مناطق سهلية وأحواض نهرية، مثل حوض الكونغو، وحوض النيل، وحوض الزمبيزي.. لذا ظلت المناطق الداخلية منعزلة، استعصت على كثير من المغامرين والمستكشفين.

كما أدى كثرة المستنقعات داخل القارة إلى انتشار الأمراض والأوبئة، وخاصة الملاريا، التي أودت بحياة العديد من المستكشفين، حتى أطلقوا على بعض مناطق القارة (مقبرة الرجل الأبيض)!

في ذات الوقت لعبت أنهار القارة دورًا إيجابيًا وآخر سلبيًا في هذه الكشوف، حيث أمكن التوغل داخل القارة وذلك في الأجزاء الصالحة للملاحة من تلك الأنهار، بينما وقفت الأجزاء غير الصالحة للملاحة حائلاً، إما بسبب انحدارها المفاجئ، كما هو الحال في شلالات فيكتوريا على نهر الزمبيزي، وشلالات ستانلي على نهر الكونغو.. أو بسبب وجود بعض النباتات التي تعترض أجزاءً من النهر كما في منطقة السدود على مجرى نهر النيل.

المُنـاخ:

يسود القارة، بصفة عامة، مناخ استوائي، وذلك نظرًا لوقوع الجزء الأكبر منها بين المدارين، وهو مناخ لا يناسب الرجل الأوربي، حيث الحرارة

(1) كشف القارة الإفريقية. د. زاهر رياض. مكتبة الأنجلو المصرية.

الشديدة، والأمطار الغزيرة.. وقد أدى ذلك إلى نمو الغابات الكثيفة التي تعتبر بيئة جيدة لحياة الحيوانات المفترسة بجانب المستنقعات التي تعيش بها الحشرات الضارة والمسببة للعديد من الأمراض الفتاكة.

أما في شمال القارة فتوجد الصحراء الكبرى، حيث ندرة المياه، وشدة الحرارة، بالإضافة إلى صحراء كلهاري في الجنوب.. كل هذه عوامل أدت إلى تأخر وإعاقة كشف إفريقيا.

الحروب الأهلية والكوارث الطبيعية:

كانت إفريقيا منذ القدم مقسمة إلى ممالك وسلطنات، يغلب عليها الطابع القبلي.. وكثيرًا ما كانت الحروب تنشأ بين تلك القبائل لأبسط الأسباب.. كانت حروبًا طاحنة تدوم طويلًا، ما إن تهدأ حتى تثور من جديد.. ولقد وقفت تلك الحروب حائلًا في وجه المغامرين والمستكشفين لأعماق القارة.

كما شكلت الكوارث الطبيعية، التي كثيرًا ما كانت تضرب القارة، كالمجاعات وموجات الجفاف، حائلًا آخر.

هذا فضلًا عن كراهية الأفارقة للأجانب، وخاصة الرجل الأبيض، الذي ارتبطت صورته في أذهانهم بتجارة الرقيق.. إذ كان الأوربيون يصطادون السكان ويأسرونهم حتى يتم شحنهم إلى أوربا، والأمريكتين!!

الكشوف الداخلية لإفريقيا

العرب يحكمون سيطرتهم على سواحل إفريقيا قبل البرتغاليين:

ذكر المؤرخ الروماني (بلينيوس) أن التتابعة ملوك اليمن، عرفوا جميع ممالك إفريقيا الشرقية وجزرها، وكان لهم عليها شيء من السلطة. وكانوا يتجرون مع أهلها بالتوابل والطيوب المختلفة، وقد حرموا على السوقة من عامتهم الاتجار بهذه الأصناف مع اليونان والرومان لئلا يفشوا سرها!!

ولما ظهر الإسلام، وخلال القرنين الأول والثاني للهجرة، رحل كثير من العرب والمسلمين إلى سواحل إفريقيا الشرقية والشمالية فبلغوا تونس وطرابلس الغرب، واجتاز كثير منهم الصحراء الكبرى في عمق القارة.. وعن طريق مصر وصلوا السودان، وكانت القصير (على البحر الأحمر) مرفأ لمراكبهم، يجتازون منها مضيق باب المندب في البحر الأحمر، ويسيرون على السواحل الشرقية لإفريقيا، حتى وصل بعضهم إلى سواحل جزيرة مدغشقر جنوبًا، وأسسوا شمالها مملكة عربية لا تزال آثارها وقلاعها باقية حتى الآن.

وذكر بعض مؤرخي العرب أنه في القرن الرابع الهجري كانت كل سواحل إفريقيا الشرقية وبلاد الزنج التي تليها معروفة عند العرب، فاستوطنوها، واتجروا مع أهلها بالعاج والذهب والطيوب العطرية، وكانت بلاد ملندا، وممباسا، ومقديشو، وزنجبار، وجزر القمر، ممالك مستقلة زاهرة وعامرة، وكان سلاطينها ذوي جاه وسطوة.

لقد اكتشف العرب سواحل إفريقيا الشمالية والشرقية والجنوبية بعد الفتح الإسلامي بزمن وجيز، على عهد الدولتين الأموية والعباسية، ثم توغلوا داخل القارة حول أنهار النيل والنيجر والكونغو، وكان عرب عُمان، وحضرموت، والبحرين، أول من عرف طريق الهند منذ زمن سحيق.

وزار الرحالة العربي الشهير (ابن بطوطة) هذه الممالك الإسلامية الإفريقية، وجال في كثير منها، ووصف أهلها وعاداتهم، والتقى سلاطينها الذين أكرموه وأتحفوه بالهدايا.

البرتغاليون يسيطرون على سواحل إفريقيا بعد طرد العرب منها:

ولما ضعفت شوكة العرب، تبعًا لضعف الخلافة العباسية في بغداد، وبانتقالها إلى الفاطميين في مصر، والعلويين في بلاد المغرب، وتفرقت الممالك الإسلامية العربية بين الأتراك والتتار الشراكسة، وتبعًا لذلك كله، تفرقت كلمة العرب، وتركوا أسباب التجارة، واشتغلوا بالنزاعات القومية والعرقية، والحروب الأهلية.. فسادهم الجهل، وضاعت البلاد من أيديهم!

وإبان ذلك اشتد ساعد الإسبان والبرتغال.. وجهزت البرتغال سفنها وأساطيلها في القرن الخامس عشر، وأرسلتها إلى سواحل إفريقيا الغربية والشرقية، وطردوا العرب منها.

كانت السفن البرتغالية مجهزة بالمدافع وغيرها من الذخائر، مما سهل تحطيم السفن التجارية العربية الصغيرة.. وفرض البرتغاليون سيطرتهم وسطوتهم على المدن والموانى التي نزلوا بها مثل مالندي وسقطري، وبمبا، وغيرها، وبنوا هناك القلاع الحصينة والمراكز التجارية التي لا تزال آثارها باقية حتى الآن.

ومن هذه المراكز اجتاح البرتغاليون الأساطيل العربية، وضربوا السواحل بالمدافع، وأسسوا

إمبراطورية تجارية بحرية برتغالية.. ونشروا الرعب في البحار العربية، ودخلوا الخليج العربي، حيث احتلوا مسقط عام 1508، وصحار وصور.. واحتلوا هرمز وغيرها من المدن.. واشتد جشعهم وتعصبهم الديني، فاجتاحوا سواحل المسلمين، وألزموا أهلها بدفع ضريبة سنوية مقدارها خمسمائة مثقال من الذهب.. هذا فضلاً عن إيراد سنوي يؤخذ من هذه الممالك لملك البرتغال.. وهكذا توافر للبرتغال أسباب الغنى والسيادة على السواحل الإفريقية كلها شرقًا وغربًا، حتى الخليج العربي وعمان والهند.. وأخذ البرتغاليون من العرب الكثير من العلوم، والفنون، وأصول التجارة، وعلوم البحار!!

دول أوربية أخرى تدخل المنافسة:

بعد النجاح الذي حققه البحارة البرتغاليون، وتمكنهم من إقامة مستعمرات ومراكز تجارية على طول السواحل الإفريقية، بدأت دول أوربية أخرى، كهولندا، وفرنسا، وبريطانيا في منافسة البرتغال، وشرعت في تأسيس مراكز تجارية خاصة بها على تلك السواحل، وعلى الرغم من كثرة تلك المراكز، إلا أن الغرض من إنشائها كان يهدف إلى أمرين أساسيين:

- **الأول:** وهو الأهم، تجميع العبيد الأفارقة وشحنهم إلى العالم الجديد (الأمريكتين) للعمل في مزارع قصب السكر، والقطن، والمطاط، والمناجم.

- **الثاني:** أن تكون هذه المراكز بمثابة محطات لتزويد السفن والرحالة باحتياجاتهم لمواصلة الرحلات عبر المحيط.

وعلى الرغم من هذا النشاط الاستكشافي على طول السواحل، إلا أن محاولات التوغل داخل القارة (المظلمة) كانت محدودة جدًّا، وكان من أهمها محاولة البرتغاليين في التوغل داخل موزمبيق وأنجولا، حيث اتجهوا من مصب نهر الزمبيزي حتى أعاليه، ووصلوا إلى الطرف الجنوبي لبحيرة نياسا عام 1616.

وفي عام 1652 أسست شركة الهند الشرقية الهولندية مركزًا في إقليم الكاب بجنوب إفريقيا ليكون نواة للمستعمرة الهولندية هناك.

ضعف الوجود الهولندي وازدياد النشاط البريطاني والفرنسي:

نشطت الكشوف الاستعمارية الهولندية في جنوب القارة.. وفي عام 1778 وصل الهولنديون إلى ناميبيا عبر نهر الأورانج Orange.. إلا أن هذا النشاط الاستعماري المحموم ما لبث أن ضعف وتراجع، وذلك بسبب الاضطرابات التي شهدتها هولندا، ودخولها سلسلة من الحروب مع إنجلترا وفرنسا، حتى وقعت فريسة للقوات الفرنسية عام 1795.

وفي عام 1798 احتلت بريطانيا الكاب في جنوب إفريقيا، وذلك لحماية طريقها إلى مستعمراتها في الشرق بعد تدخلها في الهند.

تأسيس الجمعية الإفريقية:

في لندن، وفي السابع من شهر يونيو من عام 1788، تم تأسيس جمعية لتنشيط حركة الكشف الجغرافي للأقاليم الداخلية من إفريقيا Association for promoting the Discovery of the Inland Districts of Africa والتي عرفت فيما بعد باسم الجمعية الإفريقية African Association، وبصرف النظر عن أهدافها المعلنة، فقد كانت في الحقيقة جمعية تبشيرية في المقام الأول، تُعنى بتنظيم عمليات الكشوف الجغرافية داخل القارة، من خلال إرسالها وتشجيعها للرحالة والمبشرين وتمويلهم والإنفاق عليهم.

أهم الصعوبات التي واجهت الجمعية :

كان من أهم الأهداف المعلنة للجمعية، تأمين طريق تجاري لبريطانيا مع غرب ووسط إفريقيا، وذلك عبر نهر النيجر، هذا النهر الذي لم يكن الأوربيون يعرفون عنه شيئًا، إذ كان بعض الجغرافيين يعتقد أنه أحد فروع النيل، بينما كان يعتقد البعض الآخر أنه أحد فروع نهر الكونغو..

وعلى شاطئه تقع مدينة تمبكتو ذات الشهرة التاريخية العريقة، التي طالما سمع عنها الأوربيون كمدينة أسطورية!

ولكن كيف الوصول إلى هذا النهر؟

- كان الوصول إلى هذا النهر إما عن طريق الساحل الغربي لإفريقيا، أو عن طريق اجتياز الصحراء الكبرى شمالي القارة.

الصحراء الكبرى:

تشغل الصحراء الكبرى مساحة شاسعة من شمال قارة إفريقيا، تمتد من البحر الأحمر شرقًا وحتى المحيط الأطلس غربًا.. ومن نطاق السافانا الحار الرطب جنوبًا وحتى ساحل البحر المتوسط شمالاً.. وهي بالتالي تضم نطاق العديد من دول شمال القارة مثل: مصر، والسودان، وليبيا، وتونس، والجزائر، والمغرب، وموريتانيا، والنيجر، ومالي، وتشاد.. وتبلغ مساحتها نحو ثمانية ملايين كيلو مترًا مربعًا.

ونظرًا لكونها صحراء شاسعة مترامية الأطراف، تقل فيها المعالم الطبيعية، فإننا نلاحظ أن الحدود السياسية بين تلك الدول عبارة عن خطوط مستقيمة.. فكان اجتياز هذه الصحراء من أهم الصعوبات التي واجهت الرحالة والمستكشفين، إذ يسودها ظروف مناخية ومعيشية قاسية، تتمثل في:

△ خريطة توضح إقليم الصحراء الكبرى التي تحتل شمال قارة إفريقيا

ارتفاع درجات الحرارة، وخاصة في المناطق الداخلية.. ندرة المياه.. ندرة الحياة النباتية الطبيعية.. التربة الرملية الناعمة التي يصعب السير والعيش عليها.. قلة المعالم الطبيعية التي يُسترشد بها وسط تلك المتاهات.. العواصف الرملية العاتية.. كثرة قطاع الطرق من سكان تلك الصحراء.. انتشار الأمراض والأوبئة الفتاكة التي أودت بحياة العديد من الرحالة والمستكشفين من أمثال: أودني، وريتشي، وكلابرتون، وغيرهم كما سنرى.

دور الجمعية الإفريقية في اكتشاف القارة

عمدت الجمعية إلى تشجيع الرحالة والمستكشفين لاجتياز الصحراء الكبرى، وتتبع نهر النيجر.. وهذه أهم الرحلات:

رحلة جون ليديارد John Ledyard:

وهو مغامر أمريكي، كان يبلغ من العمر 37 عامًا، التحق بالقوات البحرية البريطانية، وأبحر مع الكابتن جيمس كوك Jemes cook حول العالم.. وكان قد سار من السويد إلى روسيا مرورًا بفنلندا.. وترأس بعثة استكشافية إلى سيبريا، إلا أنه سرعان ما طردته السلطات الروسية، فعاد إلى بريطانيا خالي الوفاض.. حيث كلفته الجمعية الإفريقية بالسفر إلى مصر ليعبر منها الصحراء الليبية قاصدًا نهر النيجر ليصل مدينة تمبكتو.. إلا أنه لم يتمكن من الذهاب أبعد من القاهرة، حيث أصيب بمرض أودى بحياته، بعد ما تناول جرعة زائدة من الأدوية.

رحلة سيمون لوكاس Simon Lucas:

كان لوكاس قد شغل وظيفة نائب قنصل بريطانيا في مراكش لفترة طويلة، تمكن خلالها من إتقان اللغة العربية.. وأوفدته الجمعية الإفريقية على رأس بعثة استكشافية من الساحل الشمالي لإفريقيا باتجاه الجنوب، وبدأت الرحلة في أغسطس من عام 1788م.

وصلت البعثة إلى طرابلس، والتحق لوكاس بقافلة سارت على طول الساحل إلى ما بعد مصراته، وهناك كان قد قرر خوض الصحراء ليصل إلى بلاد الزنوج جنوبي النيجر، إلا أنه لم يُعرف شيء عن لوكاس بعد ذلك، إذ يعتقد أنه مات في مصراته ولم يعبر الصحراء، وإن كان بعض المصادر تؤكد أنه عاد إلى لندن وأمدّ الجمعية ببعض المعلومات، ومن أهمها وجود طرق تجارية تمر خلال الصحراء.

رحلة الميجور دانيال هوفتون Major Danial Houghton:

كان هوفتون ضمن بعثة رسمية في مراكش، تمكن خلالها من إتقان بعض اللغات واللهجات المحلية، مما مكنه من التوغل في بعض المناطق القريبة لإفريقيا.

أبحر (هوفتون) من ميناء بليموث Plymouth في بريطانيا في أكتوبر من عام 1790، ووصل إلى الساحل الغربي للقارة، وتوغل في السنغال عبر نهر جامبيا حتى وصل Medina Saback، حيث اغتيل هناك.

رحلة ويليام براون Brown:

فيما بين عامي 1792 - 1796 قام الرحالة وليام براون، الذي كان يعمل لحسابه الخاص وليس لحساب الجمعية الإفريقية، برحلات بدأها

من القاهرة، وعبر الصحراء إلى سيوه، وتمكن من الوصول إلى دارفور في السودان.

رحلة فريدريك هورنمان Frederick Horneman:

بعد ذلك أرسلت الجمعية الألماني (هورنمان) ليزيل الغموض الذي يكتنف هذا النهر (نهر النيجر).

وصل (هورنمان) القاهرة أيام الحملة الفرنسية على مصر، ويذكر أن نابليون بونابرت كان قد التقى به.. ومن القاهرة اتجه (هورنمان) في الخامس من سبتمبر من عام 1789 صوب الغرب مع قافلة للتجار والحجاج العائدين من مكة، وتنكر في ثياب رحالة مسلم. مرت القافلة بوادي النطرون ثم واحة سيوه، حتى وصلت إلى واحة مرزوق في فزان، وهناك سجل هورنمان ملاحظاته عن فزان وأحوال سكانها، وحاكمها، ثم عبر الصحراء حتى وصل إلى بورنو على نهر النيجر.

تباينت الأخبار فيما بعد حول مصير (هورنمان)، ففي عام 1805 ذُكر أنه في إقليم كاتسينا ألا Katsina Ala (في نيجيريا) منذ سنتين، وبعد ذلك واصل رحلته صوب الشمال.. ويذكر أنه مات نتيجة إصابته بالدوسنتاريا عند بلدة باكاني Bakkanee.

وكان (هورنمان) قد أرسل آخر خطاب له إلى الجمعية الملكية من مرزوق في 6 أبريل من عام 1800، وبدأه بقوله: (سيدي إن قافلتنا ستبدأ رحلتها إلى بورنو وسألحق بها في المساء، وأملي كبير في أن أنجح في تحقيق هدفي.. ثم يقول: يمكنكم الثقة في حسن هدفي ورغبتي في أن أحوز على رضا الجمعية رضا كاملًا).

هذا، ويعد (هورنمان) أول أوربي يجتاز الصحراء الكبرى إلى نهر النيجر عند مدينة ساي Say، وتتبع مجراه نحو نوب Nupe.

رحلة مونجو بارك Mungo Park:

مونجو بارك، الجراح والمستكشف الأسكتلندي

في عام 1795 وقع اختيار الجمعية الإفريقية على الرحالة والجراح الأسكتلندي مونجو بارك (1771 - 1806)، الذي بدأ رحلته من ميناء بورتسموث Portsmouth ببريطانيا قاصدًا الساحل الغربي لإفريقيا، الذي وصله بعد رحلة استغرقت نحو شهر، مصطحبًا معه اثنين من المترجمين والمساعدين، وحاملًا معه بعض البضائع بقصد التجارة.

وعلى الساحل الغربي لإفريقيا وعند مصب نهر جامبيا، مكث (بارك) عدة أشهر، خالط السكان هناك، وتعلم اللهجات المحلية، ثم سار مع مجموعة من تجار الرقيق داخل القارة باتجاه الشرق، في رحلة لاقى فيها العديد من المتاعب والأخطار.

إذ أسرته إحدى القبائل، إلا أنه تمكن من الفرار.

كان (بارك) مستكشفًا شجاعًا مخلصًا لبريطانيا، يتضح ذلك من قوله وهو يكشف عن

نواياه، ومقاصده: (ينبغي عليَّ أن أهلك في رحلتي، كما ينبغي أيضًا أن تهلك معي كل آمالي وتوقعاتي، وينبغي عليَّ أيضًا أن أنقل جغرافية إفريقيا بحيث تصبح أكثر ألفة لأهل بلدي، وأن أفتح أمامهم مصادر جديدة للثروة وقنوات جديدة للتجارة)!!

وصل (بارك) إلى نهر النيجر في يوليو من عام 1796. وكتب عنه في مذكراته، إنه نهر واسع كنهر التايمز، جاء ذلك في مذكراته التي نشرها في لندن عام 1799 تحت عنوان: رحلات في الأقاليم الداخلية لإفريقيا Travels in the Interior Districts of Africa

وكان من أهم نتائج رحلة (بارك) هذه، أنها أكدت انفصال نهر النيجر عن نهر جامبيا.. كما نقل (بارك) من خلال تلك الرحلة، ما يلاقيه العبيد من معاملات سيئة في أثناء عمليات تجميعهم (وصيدهم)، ونقلهم (شحنهم) إلى العالم الجديد (الأمريكتين)، مما جلب تعاطف الأوربيين معهم، وبالفعل حظرت بريطانيا تجارة العبيد في إمبراطوريتها عام 1807.

رحلة (بارك) الثانية:

كانت نتائج رحلة (بارك) مرضية بالنسبة للجمعية الإفريقية، لذا عمدت إلى إرسال (بارك) في رحلة ثانية إلى إفريقيا.. وبالفعل عاد (بارك) إلى إفريقيا في مايو من عام 1805.. وكان قد خطط لهذه الرحلة، لتتبع نهر النيجر حتى مصبه في المحيط الأطلسي، وبدأ الرحلة من نهر فاليمي Faleme بالقرب من حدود مالي مع السنغال، ومعه 44 رجلًا، وفي أغسطس وصل النهر ومعه فقط عشرة رجال، حيث فتكت الأمراض الاستوائية بالباقين.. وفي نوفمبر لم يكن معه سوى خمسة من رجاله.. وحاول الوصول بهم إلى مصب النهر، إلا أنه لم يتمكن، حيث لقى حتفه مع من بقى معه من الرجال غرقًا في النهر، بعد أن هاجمهم سكان القبائل.. كان ذلك عام 1806.

رحلة ريتش وليون:

في عام 1818 أوفدت الجمعية الإفريقية الطبيب الشاب جوزيف ريتشي Joseph Ritchie والضابط البحري جورج ليون George Lyon، ومعهما ثالث يُدعى جون بلفور، إلى طرابلس.. كان (ريتشي) قد عُيِّن نائبًا للقنصل البريطاني في فزان، وصدرت التعليمات له بالتوجه نحو تمبكتو، وتسجيل كل المعلومات الخاصة بمجرى نهر النيجر، وتتبعه حتى مصبه، ودراسة إمكانية استخدامه في الملاحة بأمان.

كانت تمبكتو نقطة التقاء الطرق التجارية القادمة من الشمال الإفريقي، والمناطق الواقعة جنوب الصحراء، فكانت معروفة لدى الأوربيين بأنها مركز الثروة والثقافة.

بدأت الرحلة من طرابلس بقيادة (ريتشي)، باتجاه مرزوق Murzuk عاصمة إقليم فزان، وهناك أصيب الثلاثة بالحمى، ومات (ريتشي)، وحل محله في القيادة (ليون)، الذي وجد أنه لا يمكنه التقدم عبر الصحراء، وبالتالي لم يتمكن من الوصول إلى تمبكتو، إلا أنه تمكن من جمع قدر كبير من المعلومات عن المناطق المجاورة لفزان، وكذا بعض المعلومات عن تمبكتو من التجار القادمين منها.. ورسخ في ذهنه أن نهر النيجر يصب في بحيرة تشاد. رجع ليون إلى طرابلس عام 1820 مرورًا ببعض الواحات ومنها رجع إلى بلاده بسبب قلة التمويل.. وهناك نشر ما جمعه من معلومات، أهمها خريطته الدقيقة عن فزان.

رحلة ألكسندر جوردون لينج:

في عام 1821 وقع اختيار الجمعية على الأسكتلندي الميجور ألكسندر جوردون لينج Major Alexander Gordon Laing، البالغ من العمر 27 عامًا.. والذي كان مهتما بالكشوف الجغرافية في إفريقيا، منذ أن كان ضمن كتيبة تمركزت في سيراليون، التي أنشئت لتكون مستعمرة للعبيد المحررين.

خطط (لينج) لرحلته التي يهدف منها للوصول إلى تمبكتو، والبحث عن منابع نهر النيجر.. تمكن (لينج) من تحديد هذه المنابع على الرغم من عدم وصوله إليها، كما أنه وصل إلى نتيجة افتراضية، لم يستطع إثباتها، وهي أنه لا توجد صلة بين نهري النيجر والنيل.

بعثة وولتر أودني:

تُعد هذه البعثة أكثر بعثات الجمعية الإفريقية تنظيمًا، وكانت تضم الطبيب الأسكتلندي وولتر أودني Walter Oudney البالغ من العمر 31 عامًا، وصديقه هيو كلابرتون Hugh Clapperton، والضابط البريطاني ديكسون دنهام Dixon Denham

هيو كلابرتون ◀

كان أودني شغوفًا بالكشوف ودراسة التاريخ الطبيعي، أما كلابرتون فكان على دراية كبيرة بالبحر، إذ كان يعمل على سفينة تجارية منذ أن كان صبيًا، ثم هرب منها في جبل طارق، ثم عمل في الأسطول الملكي الذي أبحر حول العالم من الشرق إلى جزر الهند الغربية.. وفي عام 1817 عاد إلى موطنه حيث تعرف على صديقه أودني.

أما ثالثهما (دنهام) فكان ضابطًا بالجيش البريطاني، وكان قد سبق له أن تقابل مع (ليون) الذي شجعه على القيام برحلات استكشافية في إفريقيا.

في عام 1822 وصلت البعثة إلى طرابلس، ثم أخذت طريق القوافل عبر الصحراء حتى وصلت واحة مرزوق. ولم يلبث (دنهام) هناك طويلًا حتى رجع إلى لندن، ثم عاد إلى زميليه مرة أخرى، فوجدهما قد كشفا المنطقة الواقعة بين واحة مرزوق وواحة غات Ghat الواقعة في الجنوب.

اتجهت البعثة بعد ذلك نحو بورنو، وفي الرابع من فبراير من عام 1823 رأى رجالها بحيرة تشاد، وكانوا أول من يراها من الأوربيين، وتحققوا من أنها لا تتصل بنهر النيجر.

انفصل (دنهام) عن زميليه، والتحق بمجموعة من جنود البورنو المسلحين، واتجه معهم نحو الجنوب، إلا أنه سرعان ما عاد مرة أخرى إلى البحيرة، فوجد زميليه أودني وكلابرتون قد أخذا طريقهما نحو الجنوب الشرقي ليكتشفا نهر شاري Shari، ويثبتا أنه غير نهر النيجر.. في تلك الأثناء كان (أودني) قد بدأ يعاني من مرض السل.. وفي يناير عام 1824 مات (أودني) في منطقة على مقربة من كانو Kano، فحزن عليه صديقه الوفي (كلابرتون)، حزنًا شديدًا.

واصل (كلابرتون) السفر إلى كانو، التي تحتل مكانًا وسطًا بين بحيرة تشاد ونهر النيجر، وكانت، آنذاك، لا تقل أهمية عن تمبكتو، إذ كانت تشتهر بأسواقها التي يأتيها التجار العرب القادمين من طرابلس عبر الصحراء.

دخل (كلابرتون) كانو بصحبة صديق له جاء معه من فزان اسمه (محمد الوردي).. ووصف المدينة بأنها مجموعة متناثرة من المنازل التي بينها العديد من البحيرات، وقصد مع صديقه منزل الحاكم (الحاج صلاح) وكان يحمل إليه خطاب توصية من حاكم بورنو، فأحسن استقباله وضيافته.. ثم التقى بعد ذلك بحاكم سانسان Sansan وكان يحمل خطاب توصية إلى (بللو) سلطان سوكوتو Sokoto (في نيجيريا حاليًا على نهر سوكوتو)، فاعتنى به الحاكم وأرسله مع إحدى القوافل المتجهة إلى هناك.. وصل كلابرتون إلى سوكوتو، إلا أن حاكمها السلطان (بللو) رفض السماح له بإكمال رحلته إلى النيجر، فأصيب بإحباط، كما واجه هناك العديد من العقبات، مما جعله يفكر في الرجوع إلى زميله دنهام، حيث التقيا بالقرب من بحيرة تشاد.

عاد (كلابرتون) و(دنهام) إلى طرابلس عبر الصحراء، ومنها رجعا إلى إنجلترا، حيث وصلا لندن في شهر يونيو من عام 1825، أي بعد ثلاث سنوات ونصف من بدء الرحلة.

وفي لندن نشر دنهام كتابه (حكايات الرحلات والاستكشافات في شمال نيجيريا).

وكان من أهم نتائج هذه الرحلة، أنها اكتشفت بحيرة تشاد، وأكدت عدم اتصالها بنهر النيجر.

عودة جوردون لينج:

شعر (لينج) أنه قد هزم أمام (كلابرتون) في السباق نحو تمبكتو، فقرر العودة إلى هناك على رأس بعثة.

وصل (لينج) طرابلس، وهناك تزوج من ابنة القنصل العام البريطاني الذي يُعد الراعي الأكبر للكشوف الإفريقية.

انطلق لينج ليعبر الصحراء نحو الجنوب، فوصل واحة صالح في ديسمبر من عام 1825، ويعتبر (لينج) أول أوربي يصل إلى تلك المنطقة.

واجه (لينج) متاعب جمة، خلال رحلته، وهوجم من قبل بعض القبائل، وقتل العديد من رجاله، إلا أنه مع ذلك تمكن من الوصول إلى تمبكتو في أغسطس من عام 1826، وهناك لم يمكث طويلًا، حيث قرر الرحيل صوب الساحل الغربي لإفريقيا، إلا أنه قتل في منطقة تسمى Sahab، واختفى (لينج)، واختفت معه مذكراته التي سجلها!!

الواقعة على نهر النيجر، والتي غرق بها (مونجو بارك)، ومنها تابعا السفر إلى واوا Wawa، التي لا تبعد كثيرًا عن بوسا، وهناك أصيب الاثنان بالدوستنتاريا، حيث شفي كلابرتون أولًا، فحمل صديقه لاندر وعبر به نهر النيجر، وسافرا باتجاه الجنوب، ثم اتجها بعد ذلك نحو الشمال الشرقي حيث مملكتي زاريا Zaria وكانو Kano.

ترك (كلابرتون) صديقه (لاندر) في كانو، ووصل بنفسه إلى سوكوتو لمقابلة السلطان (بللو) مرة ثانية، فوجده هذه المرة قد خرج على رأس جيش لمحاربة ملك بورنو.. كان السلطان مشغولًا بالحرب وبالتالي لم يتمكن (كلابرتون) من إبرام أية اتفاقيات معه!

رحلة كلابرتون ولاندر:

استدعت وزارة المستعمرات البريطانية (كلابرتون) لكي يقوم برحلة ثانية إلى إفريقيا، والعمل على إقامة علاقات حميمة مع السلطان (بللو) سلطان سوكوتو.

وبالفعل عاد كلابرتون محملًا بالهدايا إلى السلطان من ملك بريطانيا (الملك جورج الرابع) مصطحبًا معه ريتشارد ليمون لاندر Richard Lemon Lander، كان ذلك في نوفمبر من عام 1825.

بدأت الرحلة من باداجري Badagri على خليج بنين.. وصل كلابرتون وصديقه لاندر مدينة بوسا Bussa

ريتشارد لاندر

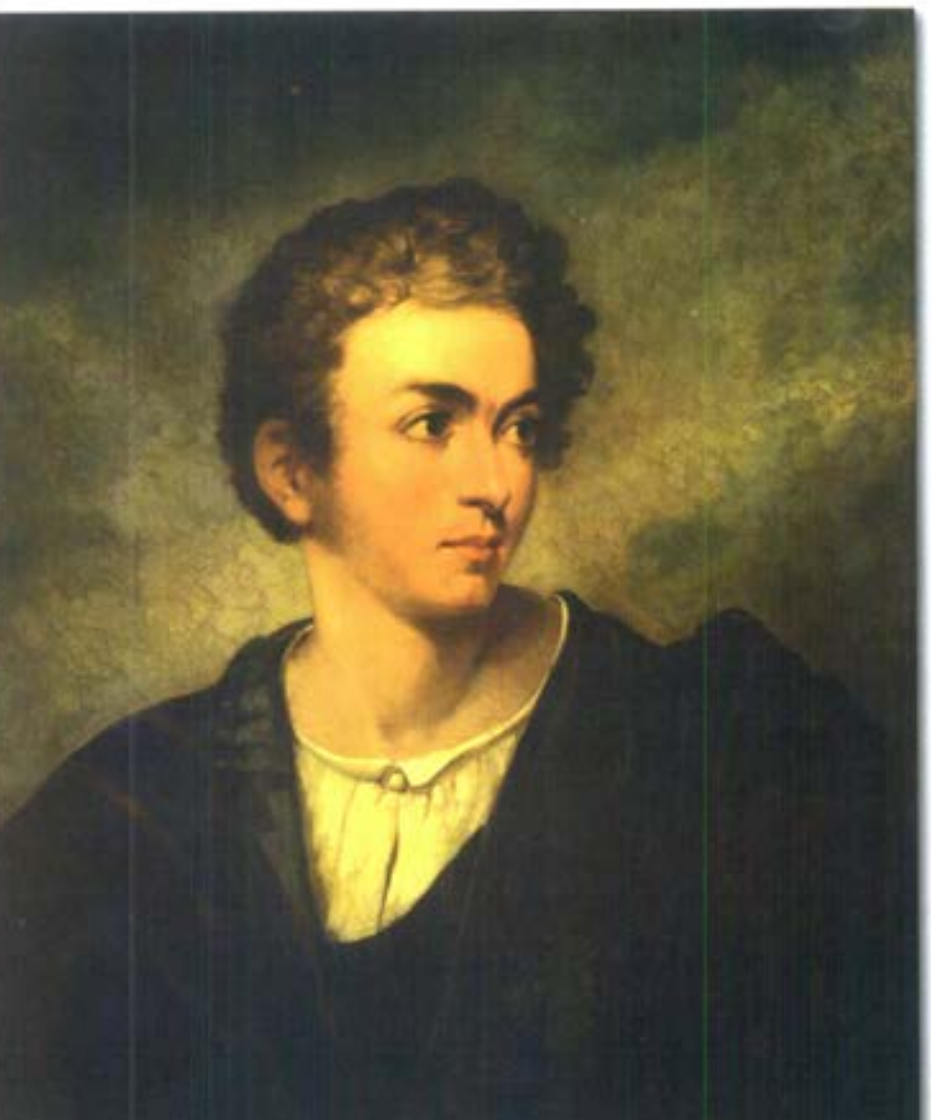

عاد (كلابرتون) إلى سوكوتو محبطًا، حيث التقى بزميله (لاندر) في 27 ديسمبر.. وفي الوقت الذي بدأ فيه (لاندر) يتماثل للشفاء بدأ المرض يدب في جسد كلابرتون، وقام لاندر على خدمته.. أحس كلابرتون هذه المرة بدنو أجله، فنادى لاندر وقال له: (بعد وقت قليل سوف لا يكون لي وجود، فأنا أشعر بالموت.. لا تتأثر كثيرًا يا بني العزيز، إنها إرادة الله، وأنت لا تستطيع مساعدتي).

وفي 13 أبريل من عام 1827 مات كلابرتون، يقول لاندر: (عندئذ كشفت رأسي، وفتحت الكتاب المقدس والدموع تنهمر من عيني، ومع ذلك بدأت أقرأ الترانيم الخاصة بالجنازة على جثمان سيدي المحترم، والتي كانت التقاليد البريطانية تقوم بها، وفي نفس اللحظة كان العلم البريطاني يرفرف ببطء وبحزن على هذا الجثمان!!).

ودفن كلابرتون في سوكوتو.

كان كلابرتون قد نصح لاندر أن يعود إلى لندن عبر الصحراء حتى يصل إلى الساحل الإفريقي، وهو نفس الطريق الذي سلكه كلابرتون في رحلته الأولى عام 1822، إلا أن (لاندر) قرر أن يتجه غربًا عبر فوندا Funda الواقعة على نهر النيجر، والتي سمع عنها كثيرًا، وهناك تتبع النهر إلا أنه تعرض لمضايقات رجال القبائل، فقرر العودة من الطريق الذي وصفه له كلابرتون حيث عاد إلى باداجري، وانتظر وصول سفينة بريطانية أقلته إلى بريطانيا، التي وصلها في شهر أبريل عام 1828، أي بعد عام من وفاة كلابرتون.. وهناك طبع مذكراته ومذكرات كلابرتون عام 1829.

رحلة لاندر الثانية:

بدأ ريتشارد لاندر رحلته الثانية إلى إفريقيا بصحبة شقيقه الأصغر جون لاندر John Lander، وذلك لتتبع نهر النيجر من بوسا Bussa وحتى مصبه.

في التاسع من يناير من عام 1830 أبحر الشقيقان من ميناء بورتسموث Portsmouth.. وكتب ريتشارد لاندر إلى وزارة شئون المستعمرات البريطانية مؤكدًا عزمه على النجاح: (عليَّ أن أمضي وأتغلب على كل المخاطر التي من الممكن أن تهددنا وتعرقل تقدمنا!!).

وصلت البعثة إلى باداجري بعد نحو ثلاثة أشهر، ومنها إلى بوسا، وهناك تم التجهيز للرحلة مع النهر والتي بدأت في 29 من سبتمبر من عام 1830.. تعرضت الرحلة للعديد من المخاطر، إذ لم يكن لها دراية بمنعطفات النهر، بالإضافة إلى تعرضها لكثير من العصابات المسلحة التي أثارت الذعر بين أفراد البعثة.

عسكرت البعثة على شاطئ نهر النيجر، وذلك عند بداية فرعه بنوي Benue، وهناك، كما يقول لاندر في مذكراته: (شاهدنا مجموعة كبيرة من الرجال، كانت غالبيتها عارية الأجسام، تجري بطريقة غير منتظمة نحو معسكرنا الصغير، وكانت ملامح هؤلاء الرجال غير مألوفة لنا، وكانوا جميعًا مسلحين بأسلحة مختلفة).

واصلت بعثة الأخوين (لاندر) رحلتها باتجاه دلتا النهر، كانت الرحلة في هذا الجزء من النهر هادئة، ومع مرور الوقت أدرك الأخوان (لاندر) أنهما على مقربة من البحر (المحيط الأطلسي)، إذ لم تعد بشرتهم البيضاء تثير شكوك السكان في تلك المنطقة، وهو يدل على أن السكان هنا قد ألفوا هذه الوجوه من خلال التجار الأوربيين الذين يزورون الساحل الغربي لإفريقيا.. وعلى الرغم من ذلك فقد تعرضت البعثة هناك لعملية سطو ونهب، وأسر الأخوان (لاندر).. وبعد متاعب جمة

أبحرت البعثة من الدلتا عبر نهر نون River Nun إلى جزيرة فرناندو بو The Island of Fernando Po، حيث وصلتها في الأول من ديسمبر، ثم عادت البعثة إلى إنجلترا عن طريق البرازيل في يوليو من عام 1831.

وهناك كافأت الجمعية الجغرافية الملكية ريتشارد لاندر بالميدالية الذهبية، ونشر الأخوان (لاندر) مذكراتهما في كتاب بعنوان: تقرير عن بعثة كشف مجرى ومصب نهر النيجر.

تعتبر رحلة لاندر الثانية هي المرحلة النهائية للكشف الجغرافي لنهر النيجر.. وهي في ذات الوقت المرحلة الأولى لاستعمار غرب إفريقيا عن طريق الشركات التجارية والبعثات التبشيرية.

أرسلت بريطانيا بعثتها التجارية الأولى إلى وسط إفريقيا عبر نهر النيجر، وكان ريتشارد لاندر مرشد هذه البعثة.. قاوم الحكام الأفارقة هذه البعثة، ورفضوا أن يقيموا معها أية علاقات، وأصروا على معاداتها.. وأطلق رجال القبائل النيران على البعثة فأصابوا (لاندر) بجروح لم تكن خطيرة، إلا أنها سرعان ما تلوثت، مما أدى إلى موت (لاندر) كان ذلك عام 1834، ولم يكن قد أتم الثلاثين من عمره!

لم تكن فرنسا لتقف مكتوفة الأيدي في هذا السباق المحموم، وتترك بريطانيا وحدها ترسل مستكشفيها إلى تلك القارة البكر تمهيدًا لاستعمارها ونهب ثرواتها.

ففي عام 1827 أعلنت الجمعية الجغرافية الفرنسية عن جائزة قيمة لمن يستطيع الوصول إلى مدينة تمبكتو Timbukto (في مالي حاليًا).

كانت تمبكتو مدينة أسطورية في أذهان الأوربيين، فقد عرفوها بأنها مدينة غنية بثرواتها من الذهب، بل إن بعض المراجع ذكرت أن بها قصورًا بنيت من الذهب!!

كانت تمبكتو أهم المراكز التجارية في إفريقيا آنذاك، وكان الأوربيون يسمونها (المدينة المحظورة) إذ لم يكن سكانها المسلمون يسمحون للأوربيين بالدخول إليها، وذلك بعدما رأوا ما يفعله الأوربيون بالأفارقة، من اضطهاد وخطف وقنص، وشحنهم عبيدًا للعالم الجديد.

رحلة رينيه كاييه:

وما أن أعلنت الجمعية الجغرافية الفرنسية عن جائزتها القيمة حتى تقدم الشاب الفرنسي رينيه أوجست كاييه Rene Auguste Caillie، وقرر أن يخوض التجربة.. فعكف على تعلم اللغة العربية، ودراسة بعض أحكام الشريعة الإسلامية، ورحل إلى الساحل الغربي لإفريقيا، وبالتحديد إلى ساحل السنغال، وهناك ادعى الإسلام، واختلق قصة أحكم نسجها، إذ ادّعى أنه كان قد ولد في مصر لأبوين عربيين، وفي أثناء غزو نابليون لمصر، أخذه البحارة الفرنسيون إلى فرنسا وهو طفل، وهناك عمل خادمًا، ثم إن سيده أحضره إلى السنغال ومنحه حريته، وهو الآن يرغب أن يعود إلى دينه الإسلامي، ويأخذ طريقه إلى مصر للبحث عن أسرته!!

أتقن (كاييه) التنكر، وكان يأخذ حذره كلما خلا بنفسه ليكتب تقاريره، فقد كان يضع أوراقًا بيضاء بين صفحات المصحف الشريف، ليكتب فيها تقاريره دون أن يشك فيه أحد!

لحق (كاييه) بقافلة من تجار الملح المتجهة إلى تمبكتو، وبعد شهرين من السفر خارت قواه بسبب إصابته بالملاريا والإسقربوط، واكتشفت سيدة عجوز أمره، وعلمت أنه غير مسلم، إلا أنها قامت على رعايته وحفظت سره.

وفي مايو من عام 1828 وصلت القافلة إلى دجنيه Djenne واستقل رجالها مركبًا في نهر النيجر قاصدين تمبكتو.. وما أن رآها (كاييه) حتى وجدها غير ما سمع عنها، فكتب في مذكراته إنها عبارة عن مجموعات من المنازل المبنية بالطين والمسقوفة بالقش. لم يمكث (كاييه) هناك سوى أربعة عشر يومًا، فقد شعر بالخطر، إذ بدأت تصرفاته تثير شكوك من حوله، فقرر الهرب باتجاه الشمال عبر جبال الأطلس حتى وصل إلى طنجة على البحر المتوسط، ومنها عبر إلى أوربا عائدًا إلى فرنسا ليفوز بالجائزة.

قدّم (كاييه) وصفًا لرحلاته في كتابه: رحلات من خلال وسط إفريقيا إلى تمبكتو Travels through Central Africa to Timbuktu ، ومات كاييه عام 1839 وهو في الأربعين من عمره.

ويرجع الفضل لكاييه في كشف الغموض الذي اكتنف مدينة تمبكتو، وكذا جوردن لينج، الذي قام برحلته على نفقته الخاصة.

رحلة جون دافيدسون John Davidson:

هو من الرحالة الذين أولوا الصحراء الكبرى اهتمامًا خاصًا، وكان قد سبق له أن سافر إلى شرق أوربا ووسط وشمال إفريقيا.

بدأ دافيدسون رحلته عام 1836 من مدينة الصويرة Essaouira، على الساحل المغربي إلى الشمال من أغادير، سالكًا طريق القوافل التي تمر وسط موريتانيا، إلا أنه قتل قبل أن يتم رحلته.

رحلة ريتشاردسون (الرحلة الأولى):

كان جيمس ريتشاردسون James Richardson رجل دين كنسي، ينتمي إلى جمعية الإنجيل البريطانية.. وصل طرابلس عام 1845، ومنها اتجه نحو الجنوب الغربي حتى وصل واحة غودامس Ghudamis في ليبيا بالقرب من الحدود التونسية الجزائرية، ومنها اتجه جنوبًا صوب غات Ghat في ليبيا بالقرب من الحدود مع الجزائر، ثم عاد مرة أخرى شمالًا إلى طرابلس، ومن هناك عبر البحر المتوسط على متن سفينة أقلته إلى بريطانيا.

رحلات ريتشاردسون (الرحلة الثانية) وبارث، وأفرويج:

شجعت رحلة ريتشاردسون الأولى الحكومة البريطانية لإرسال بعثة ثانية برئاسته لاستكمال الكشوف شمال ووسط إفريقيا.. وضمت إليه اثنين من الرحالة المشهود لهم بالكفاءة والشجاعة، وهما الألمانيان هنريش بارث Hienrich Barth، لودويج أفرويج Ludwig Overweg.

عُرف بارث بذكائه الحاد، وقدرته الفائقة على تعلم اللغات الأجنبية، فبالإضافة إلى لغته الأصلية، أجاد كلًا من العربية والإنجليزية، بجانب بعض اللهجات الإفريقية.

عبرت البعثة الصحراء حتى وصلت واحة مرزوق مرورًا بصحراء الحمادة الحمراء، وهي صحراء قاحلة لم يسبق أن وطأها مستكشف أوربي.. ثم اتجهت نحو غات Ghat في ليبيا بالقرب من الحدود مع الجزائر.. وهناك قضى رجال البعثة نحو أسبوعين، ثم انقسموا إلى مجموعتين:

الأولى برئاسة بارث،واتجهت نحو كانو (في نيجيريا حاليًا)، والأخرى برئاسة ريتشاردسون، واتجهت نحو زندر Zinder (في النيجر حاليًا).. وكان أفرويج قد اتجه نحو بحيرة تشاد.. واتفق الجميع على اللقاء في كوكا بالقرب من البحيرة.

وصل (ريتشاردسون) زندر في يناير من عام 1851، وسرعان ما مات هناك. بينما وصل (بارث) إلى كانو، ومنها إلى كوكا، قبل أن يصل إليها أفرويج، وهناك علم بموت ريتشاردسون، فتولّى رئاسة البعثة،التي قامت بدراسة بحيرة تشاد (أحد أهم أهداف البعثة)، وكتب عنها (بارث) إنها بحيرة ضخمة، تتغير حدودها كل شهر، لذا لا يمكن رسم خريطة لها، تحيط بها المستنقعات والأراضي المنخفضة.

اتجه (بارث) و(أفرويج) جنوبًا حتى وصلا يولا Yola (في نيجيريا حاليًا)، ومنها تتبعا نهر بنوي Benue أحد أهم فروع نهر النيجر.. فكر بارث في مواصلة الرحلة نحو الجنوب، إلا أن حاكم (يولا) منعه من ذلك..

اتجه بارث وأفرويج مرة أخرى باتجاه الشمال، حيث ترك بارث صديقه أفرويج عند بحيرة تشاد، بينما تتبع هو نهار شاري Chari، الذي يصب في البحيرة.. ثم عاد مرة أخرى إلى صديقه أوفرويج، والذي وجده قد اختل عقله، وأصيب بالملاريا، ولم يلبث طويلًا حتى مات.

سافر بارث عن طريق سوكوتو Sokoto (في نيجيريا حاليًا) والواقعة على نهر سوكوتو، أحد فروع النيجر، ومنها وصل إلى ساي Say (في النيجر حاليًا)، والتي تقع على نهر النيجر، ثم اتجه شمالًا حتى وصل تمبكتو (الهدف الأساسي للرحلة) حيث وصلها في سبتمبر عام 1853، والتي غادرها في بداية عام 1854 قاصدًا بحيرة تشاد مرة أخرى.

هنريش بارث ◀

رحلة إدوارد فوجيل وعودة بارث إلى بريطانيا:

في تلك الأثناء وصلت أخبار إلى بريطانيا مفادها أن (بارث) قد مات.. فأرسلت بريطانيا بعثة جديدة يترأسها الطبيب الألماني إدوارد فوجيل Edward Vogel لتبدأ عملها من حيث انتهى بارث.

وكانت المفاجأة، حينما التقى الرجلان، بارث وفوجيل، وتأكد فوجيل أن بارث لم يمت.. وكان على بارث أن يعود إلى بلاده، ليؤكد لهم أنه ما زال حيًا.

عبر بارث الصحراء متجهًا نحو الشمال، حتى وصل طرابلس، ومنها أبحر إلى بريطانيا ليصل إليها عام 1855، بعد رحلة ناجحة استمرت نحو خمس سنوات، ضم أحداثها في كتابه الضخم: رحلات واكتشافات في شمال ووسط إفريقيا فيما بين عامي 1849. 1855 Travels and Discoveries in North and Central Africa-1849.1855

مات بارث عام 1865 وهو في الرابعة والأربعين من عمره.

أما فوجيل فقد توجه نحو الشرق ليكتشف المناطق الواقعة بين البحيرة ونهر النيل، إلا أنه قتل في منطقة واداي Wadai في تشاد حاليًا.

رحلة فون بورمان:

أرسلت بريطانيا أكثر من بعثة للبحث عن فوجيل، كان آخرها تلك التي ترأسها الألماني فون بورمان Von Beurman، والتي نجحت في الوصول إلى واداي، وهناك قُتل أيضًا فون بورمان عام 1856.

رحلة جيرهارد رولفس:

في عام 1863 بدأ الرحالة الألماني جيرهارد رولفس Gerhard Rohlfs رحلاته الاستكشافية في الشمال الإفريقي، من مدينة طنجة المغربية، مدعيًا أنه طبيب مسلم.. ثم قصد فاس Fez ومراكش Marrakech، ثم اتجه جنوبًا نحو وادي سوس Wadi sous (بالمغرب)، ومن هناك اتجه نحو واحة تفيليت Tafilet، وكان الفرنسي (كاييه) قد سبق وكتب عن تلك المنطقة.. ومن هناك اتجه (رولفس) صوب واحة صالح الواقعة في قلب الصحراء، وذلك بغرض الوصول إلى تمبكتو، إلا أنه لم يتمكن من ذلك، فاضطر إلى التوجه شمالاً نحو غدامس Ghudamis ، في ليبيا بالقرب من الحدود مع تونس والجزائر، ثم قصد طرابلس، ومنها عاد إلى أوربا.

غادر رولفس مرة أخرى إلى طرابلس عام 1865، ومنها اتجه نحو غدامس، حيث عبر الصحراء إلى بورنو Borno (إحدى الولايات النيجيرية حاليًا)، وأبحر في نهر بنوي Benue حتى التقائه بمصدره الرئيسي، نهر النيجر، ومن هناك اتجه إلى بلاده.

في عام 1878 عاد رولفس مرة ثانية إلى طرابلس، ومنها اتجه جنوبًا مارًّا بواحة مرزوق وكوكا، ثم اتجه غربًا حتى وصل إبادان Ibadan، ومنها إلى لاجوس Lagos على الساحل الغربي لإفريقيا.

هذا، ويُعد جيرهارد رولفس واحدًا من أهم المستكشفين الذين ساهموا في استكشاف شمال إفريقيا، وكان أول أوربي يصل إلى مناطق عديدة منها، ويعبر الصحراء حتى يصل إلى ساحل غانا. كافأته الجمعية الجغرافية الملكية بأن منحته الميدالية الذهبية.

جوستاف ناختيجال (ناشتيجال):

يُعد جوستاف ناختيجال (ناشتيجال)

Gustave Nachtgal واحدًا من أبرز المستكشفين الذين ساهمت رحلاتهم في اكتشاف الصحراء الكبرى وكذا شمال القارة وغربها.

كان ناختجال طبيبًا بالجيش الألماني حتى عام 1863، حيث ترك العمل بالجيش وسافر إلى تونس، ومنها قصد طرابلس عام 1869 حيث اجتاز الصحراء الكبرى باتجاه الجنوب ليصل إلى فزان وهضبة تبستي Tibesti ، ويُعد بهذا أول أوربي يطأ تلك المنطقة.. ومن هناك سافر إلى كوكا Kuka في مهمة رسمية إلى سلطان بورنو من قبل قيصر بروسيا.. ومن هناك قصد بحيرة تشاد، وتمكن من دراسة المناطق المجاورة لها دراسة جيدة استغرقت نحو ثلاث سنوات.. وبدلًا من أن يعود مرة أخرى إلى طرابلس عبر الصحراء سافر إلى واداي ودارفور، كان ذلك عام 1873، ثم وصل إلى الخرطوم ومنها قصد القاهرة عن طريق نهر النيل حيث وصلها عام 1874.. وأبحر من الأسكندرية إلى بلاده عام 1875.

وفي عام 1882 عاد ناختيجال مرة أخرى لإفريقيا ليعمل قنصلًا لبلاده في غرب إفريقيا.

هذا، وتعتبر دراسات ناختيجال، التي ربطت بين شمال إفريقيا والصحراء الكبرى ووادي النيل من أوثق الدراسات التي سجلت عن تلك المناطق.

كما يعتبر ناختيجال مثالًا صادقًا للمستشكفين الأوربيين الذين ارتبطت رحلاتهم بأغراض استعمارية، إذ هو الذي أعلن قيام توجو كمستعمرة ألمانية عام 1884.

رحلة ويليام بلفور بياكي:

في عام 1854 أرسلت الجمعية الإفريقية بعثتها إلى نهر النيجر ومعها الطبيب ويليام بلفور بياكي William Bolfour Baikie.. وقد نجح بياكي في علاج أفراد البعثة، باستخدام الكينين Quinine وهي مادة مرة شبه قلوية، تعالج بها الملاريا، ولم يمت من هذه البعثة فرد واحد، بعكس البعثات السابقة، التي قضت الملاريا على الكثير من أفرادها.

وصلت هذه البعثة إلى نهر بنوي Benue، أحد فروع نهر النيجر، وأكدت إنه صالح للملاحة البحرية.

وفي عام 1857 عاد بياكي إلى النيجر ومعه صمويل كروثر Samuel Crowther، حيث قاما بتأسيس أول مركز تبشيري في نيجيريا، وذلك عند التقاء نهر النيجر بنهر بنوي.

مات (بياكي) في سيراليون في أثناء عودته إلى بلاده.

رحلة جوزيف تومسون (1858 - 1895):

في عام 1882 كلفت الجمعية الإفريقية الملكية الجيولوجي الأسكتلندي جوزيف تومسون Joseph Tomson بالذهاب إلى الساحل الشرقي لإفريقيا لاكتشاف طريق آمن من هناك إلى بحيرة فيكتوريا.

وصل تومسون زنجبار، وغادرها في مارس من عام 1883، وبعد نحو تسعة أشهر وصل بحيرة فيكتوريا، ثم عاد إلى الساحل مرة أخرى في مايو 1884، بعد أن اكتشف قمة جبل الجون Elgon، التي تقع في أوغندا إلى الشمال من بحيرة فيكتوريا، ويبلغ ارتفاعها 4321 مترًا.

خلال عامي 1890، 1891 قام جوزيف تومسون باستكشاف المنطقة الواقعة بين بحيرة نياسا Nyassa (بحيرة مالاوي) وبحيرة بانجويلو Bangweulu في زامبيا.

مات تومسون عام 1896 وهو في السابعة والثلاثين من عمره.

الكشف عن منابع النيل

ظلت منابع النيل لغزًا محيرًا يكتنفه الكثير من الغموض.. لذا كان الكشف عنها هدفًا أساسيًّا للعديد من المستكشفين والمغامرين.. فتعددت محاولاتهم ورحلاتهم.. ونورد هنا أهم تلك الرحلات.

رحلة جيمس بروس:

كان جيمس بروس James Bruce أول من حاول اكتشاف منابع النيل الأزرق، وهو من رجال وزارة الخارجية البريطانية، حيث كان يعمل قنصلًا عامًا في الجزائر.. كان (بروس) من أولئك المؤمنين بتفوق العرق السكسوني، وكان يُعد مثالًا صادقًا على مدى ارتباط الكشوف الجغرافية بالأطماع الاستعمارية!

△ جيمس بروس

في عام 1768 وصل (بروس) إلى القاهرة، وسار مع مجرى النيل حتى وصل أسوان، إلا أنه لم يتمكن من مواصلة السير بسبب نزاعات أهلية نشبت هناك، فقرر أن يدخل الحبشة عن طريق البحر الأحمر، ومنها يتجه باحثًا عن منابع النيل الأزرق، وتمكن من الوصول إلى بحيرة تانا، الذي اعتقد في البداية أنها المنبع الوحيد لنهر النيل.

أما سبب اهتمام (بروس) بالنيل الأزرق دون النيل الأبيض، فلأنه كان يعتقد أن النيل الأزرق هو الأصل، وأن النيل الأبيض فرع من فروعه.

بعد 6 سنوات عاد (بروس) إلى إنجلترا، والتقى بالملك جورج الثالث في لندن، ولم يصدق المجتمع البريطاني ما ذكره (بروس) في رحلته، مما ثبط همته في نشر أخبار تلك الرحلة، والتي لم تظهر إلى الوجود إلا عام 1790، حيث طبعت في 5 مجلدات وأهديت إلى الملك.

أهمية هذه الرحلة:

كان لرحلة (بروس) أهمية كبرى، إذ أنها جاءت في وقت كانت دول أوربا تتنافس على كسب مستعمرات في الخارج، فوجهت أنظار أوربا إلى الدول الإفريقية التي يخترقها نهر النيل.

جاء من بعد (بروس) مستكشفون آخرون، توغلوا في إفريقيا، واستفادوا كثيرًا من كتاب (بروس).. وكانت فرنسا من أكثر الدول استفادة من تلك الرحلة، وأخذ الفرنسيون ما فيها على أنها حقائق ضموا إليها ما لديهم من معلومات عن القارة استعدادا لغزوها على يد نابليون!

رحلات بيرتون وسبيك:

حتى منتصف القرن التاسع عشر، كان الغموض يكتنف منابع النيل.. كل المعلومات عنه كان مصدرها تجار العاج الذين يتوغلون في أعماق القارة.. وكانوا يقولون أن بحيرة ضخمة وسط إفريقيا تملأ بالماء الناتج عن ذوبان الثلوج المتراكمة فوق قمم الجبال العالية!!

شجعت تلك الأخبار بعض المستكشفين الأوربيين لتتبع النهر، إلا أن كثيرًا منهم لم يتمكن من مواصلة رحلته بسبب مساقط المياه والنباتات الكثيفة التي تغطي سطح الماء.

في عام 1856 أعلنت الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية عن تجهيز بعثة لاستكشاف منابع النيل، ورصدت لذلك مبلغًا هائلًا، واختارت لذلك كلًا من: بيرتون وسبيك.

يعتبر ريتشارد فرانسيس بيرتون Sir Richard Francis Burton (1821 - 1890) وجون سبيك John Hanning Speke من أشهر الرحالة الإنجليز الذين اخترقوا قارة إفريقيا.

كان بيرتون، فضلًا عن كونه رحالة، مستشرقًا وسياسيًا، عمل في الجيش البريطاني في الهند، ثم انتقل إلى بلاد العرب متنكرًا ومدعيًا الإسلام، وزار مكة متنكرًا بالزي العربي، وذلك في عام 1855.. ترجم (بيرتون) العديد من أعمال الأدب العربي، إلى اللغة الإنجليزية، كما ترجم كتاب (ألف ليلة وليلة).

وصل بيرتون وسبيك إلى جزيرة بمبا Pemba ومنها إلى زنجبار، ثم عبرا باتجاه الشمال نحو مومباسا Mombasa في كينيا.. كان ذلك في أغسطس من عام 1857، وكان معهما العديد من الحمالين والمساعدين والحمير.

وبعد ثلاثة أشهر من السفر وصلا إلى تابورا Tabora (في وسط تنزانيا)، حيث استقرت البعثة هناك بعض الوقت، ثم أكملت رحلتها باتجاه الغرب بمساعدة التجار العرب.

في الثالث عشر من فبراير من عام 1858 وصل بيرتون وسبيك بحيرة تنجانيقا، وقاما بدراستها، إلا أنهما لم يجدا النهر العظيم الذي ينبع منها، والذي قدما من أجله!

لقد خابت آمالهما، وأصيب بيرتون بالمرض، فعادا مرة أخرى إلى تابورا، وهناك انتظر بيرتون بسبب الحمى، بينما رحل سبيك بمفرده من تابورا باتجاه الشمال حتى وصل إلى بحيرة (فيكتوريا)، والتي تعتبر من أكبر بحيرات إفريقيا، كان ذلك في أغسطس من عام 1858.. وهناك خمّن سبيك أن تكون تلك البحيرة هي منبع النيل، وصدق تخمينه.. أطلق سبيك على تلك البحيرة اسم بحيرة (فيكتوريا)، تكريمًا للملكة (فيكتوريا) ملكة إنجلترا آنذاك.

وكان سبيك أول من وصف تلك البحيرة وصفًا جغرافيًا دقيقًا.

توفى بيرتون في النمسا عام 1890 بعد حياة حافلة بالرحلات والملاحظات والمذكرات، إذ كان يجيد نحو 30 لغة ولهجة، وكان له الكثير من الأعداء بسبب ملاحظاته العرقية.. وبعد وفاته قامت زوجته الكاثوليكية بحرق مذكراته التي اشتغل بتدوينها على مدى نحو 40 عامًا.

كان اكتشاف بحيرة فيكتوريا محل اهتمام كبير بالنسبة للجمعية الملكية الجغرافية بلندن.. لذا، كلفت سبيك بالعودة مرة أخرى إلى هناك، وصحبه في هذه المرة الرحالة جرانت Grant.. بدأت الرحلة عام 1860 من مدينة باجامويو Bagamoyo في تنزانيا، على الساحل الشرقي للقارة، في مواجهة زنجبار، وتمكن سبيك وجرانت من التحقق من اتصال نهر النيل ببحيرة فيكتوريا، وأنها منبع النهر.. وصدق حدس سبيك.

صمويل بيكر:

سار سبيك ورفيقه جرانت باتجاه الشمال حتى التقيا عام 1862 بالمستكشف البريطاني سير صمويل بيكر (1821-1893) Samuel Baker، الذي جاء قادمًا من السودان.

كان بيكر قد قام برحلة عام 1861، ويُعد أفضل من كتب عن النيل من المستكشفين، حيث قام بعمل مسح شامل لجميع الفروع التي تصب في النيل من الحبشة، ووضع أدق خريطة عن حوض النيل في السودان، وفسّر أسباب الفيضانات السنوية، وأثبت خطأ المعتقد الشائع آنذاك، وهو أن باستطاعة من يسيطر على منابع النيل أن يحبس ماءه أو يسممه!

سجل بيكر رحلته في كتاب رائع أهداه إلى الملك إدوارد السابع، أسماه روافد النيل في الحبشة The Nile Tributaries of Abyssininai ويُعد بيكر أول من اكتشف بحيرة ألبرت (ألبرت نيانزا)، وهي أحد منابع النيل، وتقع بين أوغندا والكونغو الديمقراطية.. كان ذلك عام 1864.

▽ صمويل بيكر

رحلة بوركهارت (الشيخ إبراهيم بن عبد الله)[1]

جون لويس بوركهارت John Lewis Burckhardt، أحد المستكشفين الذين أرسلتهم الجمعية الإفريقية لاستكشاف حوض النيل في السودان وحوض النيجر وسط إفريقيا.

وبوركهارت سويسري من عائلة ثرية في لوزان، أضرت بها حروب نابليون، فشبَّ على كراهية الفرنسيين.. ومما زاد في كراهيته لهم أنه قُدِّم للمحاكمة أمام جيش الاحتلال بتهمة تسريب أسرار عسكرية للنمساويين، وكاد يواجه الإعدام في حال ثبوت تلك التهمة.

ولما أخلى سبيله هرب إلى ألمانيا، ثم إلى إنجلترا -عدوة فرنسا اللدود- وهناك عمل مع بريطانيا ضد فرنسا.. وهكذا كانت رحلته إلى إفريقيا ذات دافعين: علمي، وشخصي.

وفي إنجلترا قضى بوركهارت نحو سنتين يدرس اللغة العربية في كمبردج، ثم أرسلته الجمعية الإفريقية إلى سوريا، حيث قضى نحو سنتين كذلك في دراسة اللغة العربية والشريعة الإسلامية.

وفي إفريقيا كتب رسائله وتقاريره عن رحلاته، وكان يبعث بهذه التقارير إلى الجمعية بلندن، إذ أنه لم يرجع إلى لندن مرة أخرى، حيث مات في مصر عام 1817 متأثرًا بالدوسنتاريا وهو في الثالثة والثلاثين من عمره!!

في أثناء رحلته في إفريقيا ادعى بوركهارت الإسلام، وسمى نفسه (الشيخ إبراهيم بن عبد الله)، وارتدى ملابس مسلم هندي، وأعانه في

(1) وله أيضًا رحلات في شبه الجزيرة العربية سوف نتعرض لها فيما بعد.

△ محمد علي

ذلك إتقانه للغة العربية، ومعرفته بالشريعة الإسلامية.

اتجه بوركهارت بعد ذلك نحو الجنوب، حتى وصل إلى سوق مدينة شندي، ثم عبر الصحراء النوبية إلى ميناء سواكن على الساحل الغربي للبحر الأحمر.. ومن هناك عبر البحر قاصدًا شبه الجزيرة العربية متنكرًا في زي تاجر سوري، فزار مكة، ووصفها وصفًا دقيقًا، كما وصف المسلمين وهم يؤدون مناسك الحج.. ومن هناك اتجه نحو الشمال حتى وصل فلسطين.. واكتشف آثار البتراء الشهيرة (بالأردن).. ثم عاد إلى بلاد النوبة بمصر، وكان أول من وجّه الأنظار إلى آثار أبي سمبل.. وفي بلاد النوبة استعد بوركهارت إلى السفر باتجاه منابع نهر النيجر، إلا أنه لم يتمكن من ذلك إذا داهمه المرض ومات.

كانت تقارير بوركهارت عن حوض النيل في السودان أفضل ما كتب في هذا الموضوع حتى ذلك التاريخ.. وكان مما كتب في تقاريره إلى الجمعية في لندن: إن السودان مفتوحة أبوابه للغازي، وأن باستطاعة ثلاثمائة جندي أوربي بأسلحتهم الحديثة أن يحتلوه!!

محمد علي والسودان:

لم تكن تلك الحقيقة التي توصل إليها بوركهارت خافية على محمد علي، فقد كان قد عزم على توجيه جيش للسودان بقيادة ابنه إسماعيل الذي كان مازال شابًا في الخامسة والعشرين من عمره، وكان لمحمد علي، من وراء ذلك، أهداف كثيرة، أهمها تأمين مجرى النيل حتى لا يقع في أيدي الإنجليز.

توجهت الحملة من مصر، وكانت تضم ثلاثة مغامرين أوربيين هم: جورج وادنجتون Waddington من دبلن، وجورج بيثون إنجليش Bethune English، وهو من رجال البحرية الأمريكية، وكان قد حدث أن رست سفينته في الأسكندرية، فهرب منها والتحق بخدمة محمد علي، وأسلم وسمى نفسه (محمد أفندي).

أما الثالث فكان فرنسيًا ويُدعى Frederic Calliaud.

تعرضت الحملة إلى العديد من المتاعب، أهمها موت قائدها إسماعيل.. وما انتهى عام 1823 حتى كان حوض النيل من منبعه في جبال الحبشة حتى مصبه في البحر المتوسط، في يد محمد علي.

مغامرون من نوع جديد!

كان من نتيجة ذلك أن تشجع العديد من الأوربيين، ممن لم يكن لهم اهتمامات بالكشوف والسياسة، بالذهاب إلى أعماق إفريقيا للكشف

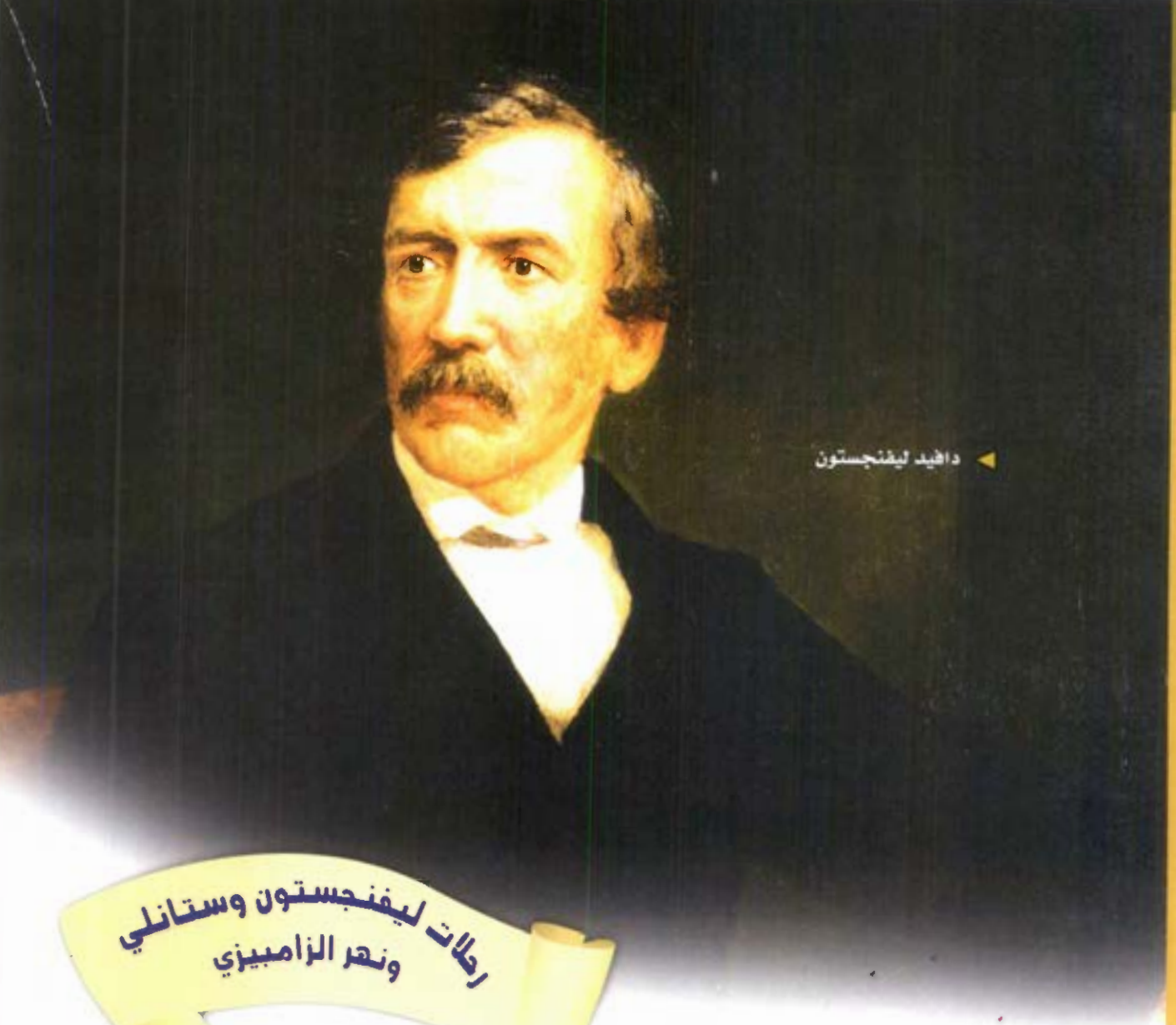

◄ دافيد ليفنجستون

رحلات ليفنجستون وستانلي ونهر الزامبيزي

عن مجاهل النيل في السودان.. منهم الأديب الفرنسي الشهير فلوبير، الذي وصل إلى أعالي النيل عام 1850، وسجل ملاحظاته ومذكراته بدقة.

وفي عام 1851 أبحر الشاعر الأمريكي بايارد تايلور Bayard Taylor في النيل الأبيض وسجل رحلته في كتاب.

كما كان للطبيب الألماني الشهير تيودور بلهارس Bilharz، مكتشف مرض البلهارسيا، نصيب أيضًا في تلك المغامرات!!

اثنان من أهم المستكشفين البريطانيين.. أثارت نتائج رحلاتهما في مجاهل إفريقيا اهتمام الأوربيين والأمريكيين..

فكيف كان ذلك؟

أولًا: دافيد ليفنجستون:

وُلد دافيد ليفنجستون David Livingstone في 19 مارس من عام 1813 باسكتلندا، لأسرة فقيرة، ونشأ محبًا للتاريخ الطبيعي.. ثم درس الطب والآداب اليونانية، وتخرج من جلاسكو.. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان متعلقًا بدراسة اللاهوت، لذا عمد إلى خدمة المسيحية، فانتظم

بالجمعية التبشيرية بلندن عام 1838.. وفي عام 1840 نال إجازة الطب والجراحة، بعدها عمل مبشرًا بكنيسة ألبيون Albion.

في بداية حياته العملية قرّر أن يعمل مبشرًا في الصين، إلا أن حرب الأفيون، التي اشتعلت هناك أنذاك، لم تمكنه من ذلك!

في عام 1840 أوفدته الجمعية إلى إفريقيا ليبشر بالمسيحية في مجاهل تلك القارة، حيث وصل إلى كيب تاون في أقصى جنوب القارة.. وهناك استقرت البعثة نحو شهر، ثم أبحرت شرقًا إلى خليج الجوا Algoa، حيث استقرت في ميناء بورت إليزابيث Port Elizabeth.. وفي أواخر يوليو من عام 1841 وصل إلى كورومن Kurumn، المركز الرئيسي للمبشر الأسكتلندي روبرت موفات Moffat، الذي أسس عام 1820، وكان أول مركز للتبشير بالمسيحية بين القبائل الإفريقية.

وبعد نحو سنتين واصل (ليفنجستون) البحث عن منطقة مناسبة لإقامة مقر خاص بالبعثة، فوقع اختياره على مابوتسا Mabotsa، والتي تقع على نهر ليمبوبو Limpopo، ووصف تلك المنطقة بأنها تقع في وادٍ ساحر.

وهناك تعرض (ليفنجستون) لحادث خطير كاد يودي بحياته، إذ هاجمه أسد ضارٍ.. يقول (ليفنجستون) في مذكراته:

(أمسكني الأسد من أحد أكتافي، وبزمجرة مفزعة هزني، كما لو كنت فأرًا بين مخالب كلب مرعب.. وقد تسبب ذلك في نوع من الرعب، بحيث لم يكن هناك إحساس بالألم أو شعور بالخوف!!

ومع أنني كنت مدركًا لكل الذي يحدث، فقد تمكن رجل إفريقي مسلح بحربة من قتل الأسد).. ثم يقول: (كان كل ما يهمني أو يدهشني، هو من أي جزء من جسمي سوف يبدأ الأسد التهامي!!).

وظل (ليفنجستون) بقية حياته يعاني آلام تلك الجروح!!

ومن هناك قصد (ليفنجستون) بوتسوانا، حيث مركز جمعية التبشير، وهناك عقد صداقات مع الأفارقة، إذ كان يتميز بالصبر والإخلاص لدعوته.. ونجح في مهمته نجاحًا كبيرًا، إذ اعتبر التبشير رسالته الأولى.. وأصبح له العديد من الأتباع والمحبين الذين يتحدثون بلسانه، ويؤمنون بفكره!!.

كان من عادة (ليفنجستون) أن يؤسس مدارس تبشيرية نظامية في المناطق التي يصل إليها ويستقر بها، وكان يقوم بتعيين مدرسين محليين للعمل بتلك المدارس مما ساعده على كسب ود الأهالي واحترامهم له!!

كان من أهم أهداف (ليفنجستون) البحث عن طرق داخل القارة تعين من يأتي بعده من المبشرين، ولذا فقد كان أول أوربي يخترق مجاهل القارة من جنوبها إلى غربها وشرقها!!.

في أوائل عام 1849 قرر ليفنجستون اجتياز صحراء كلهاري، ونجح في ذلك حتى وصل بحيرة نجامي Ngami (في بوتسوانا).. ويعتبر ليفنجستون ورفاقه أول من وصل إلى تلك البحيرة من الأوربيين.

ومن هناك أرسل ليفنجستون إلى جمعية لندن التبشيرية، أخبار اكتشافه للبحيرة، وكذا إلى الجمعية الجغرافية الملكية.

اتجه ليفنجستون بعد ذلك نحو الشمال الشرقي وكان برفقته زوجته ماري، وهي ابنة المبشر روبرت موفات وعبر نهر لينيانتي Linyante (بوتسوانا -ناميبيا) حتى وصل نهر الزامبيزي.

وفي أبريل من عام 1852 عاد (ليفنجستون) وأسرته إلى كيب تاون، ومن هناك أبحرت أسرته إلى إنجلترا، وبقي هو يواصل رحلاته واكتشافاته.

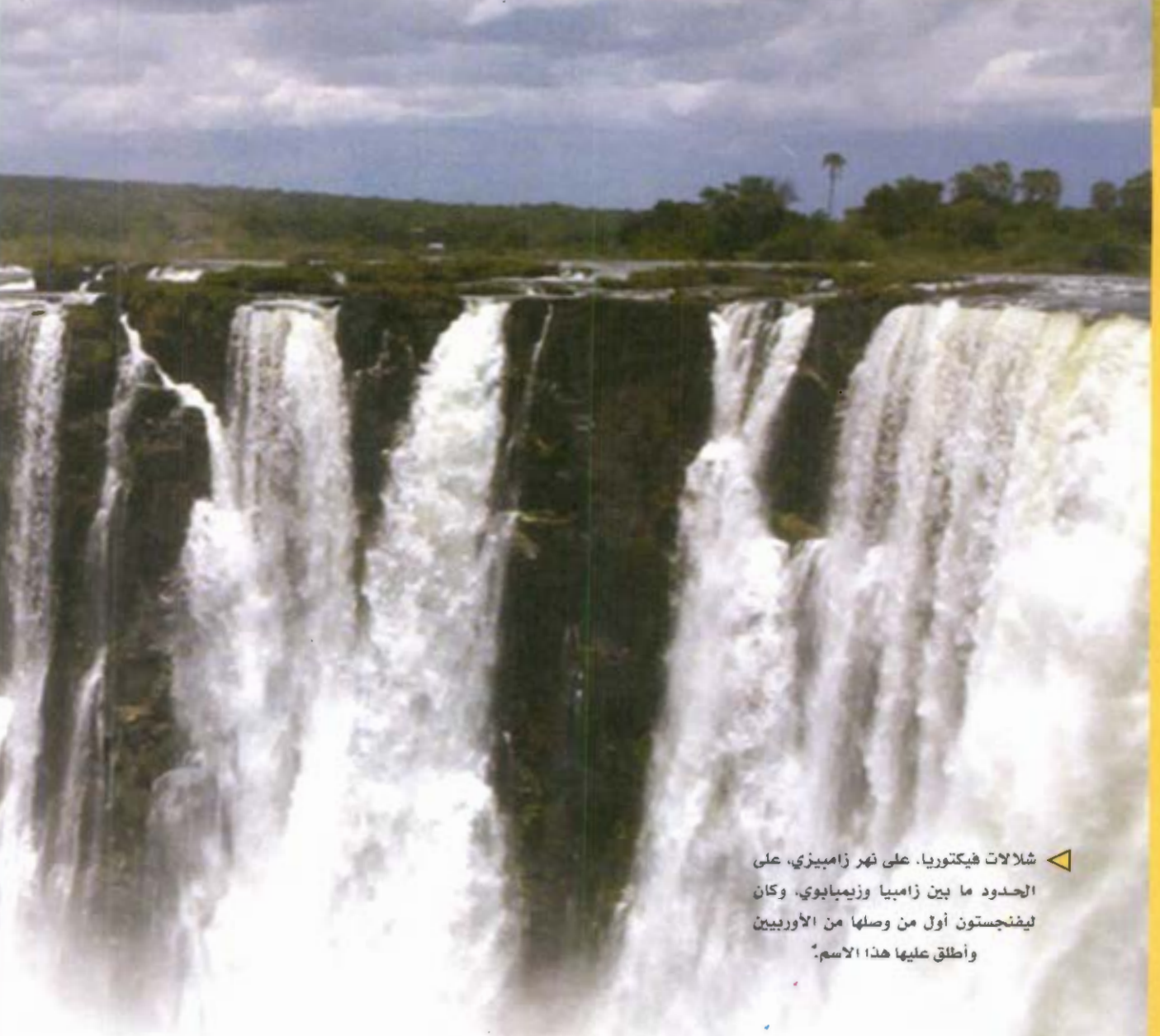

◁ شلالات فيكتوريا، على نهر زامبيزي، على الحدود ما بين زامبيا وزيمبابوي. وكان ليفنجستون أول من وصلها من الأوربيين وأطلق عليها هذا الاسم.

عاد (ليفنجستون) مرة أخرى إلى كورومان Kuruman.. في مايو من عام 1853 وصل إلى لينيانتي عاصمة شعب الماكو لولو، حيث جنّد منهم 27 حمالاً، وبدأ رحلته معهم في نوفمبر عبر نهر شوب Chobe (بوتسوانا) حتى وصل إلى نهر زامبيزي، ثم اتجه غربًا حتى وصل لواندا Luanda (في أنجولا) الميناء البرتغالي على ساحل المحيط الأطلسي، قاطعًا بذلك صحراء كلهاري، وقد لاقى خلال تلك الرحلة العديد من الصعاب والعقبات، وتعرض مع أصحابه للعطش الشديد، واضطروا إلى حفر آبار يصل عمق أي منها لأكثر من ثلاثة أمتار للحصول على الماء!!

ليفنجستون يصل شلالات فيكتوريا:

ومن لواندا عاد (ليفنجستون) مرة أخرى إلى نهر زامبيزي، حيث تتبعه إلى مصبه في المحيط الأطلسي، وفي أثناء تلك الرحلة وصل إلى شلالات فيكتوريا، والتي تقع في منتصف النهر تقريبًا.. كان ليفنجستون أول من اكتشف تلك الشلالات، وكان ذلك عام 1855.. وأول من وصلها من الأوربيين، وأطلق عليها هذا الاسم، تخليدًا لذكرى الملكة فيكتوريا.

العودة إلى لندن:

في الرابع عشر من يناير عام 1856 وصل (ليفنجستون) إلى منطقة التقاء نهري

الزامبيزي ولوانجوا Luangwa. ومن هناك أبحر شرقًا حتى وصل تيتي Tete (في موزمبيق) على نهر الزامبيزي، وقضى هناك بعض الوقت، ليتركها ويبحر عبر النهر إلى كليمان Quelimane (في موزمبيق) على ساحل المحيط الهندي، ومن هناك غادر عائدًا إلى بلاده.

وصل (ليفنجستون) لندن في 12 ديسمبر من عام 1856 وهناك استقبل بحفاوة كبيرة كبطل قومي، ومنحته جمعية لندن التبشيرية العديد من الهدايا وشهادات التقدير، بينما منحته جامعة أكسفورد الدكتوراه الفخرية في القانون، كما منحته جامعة جلاسجو الدكتوراه الفخرية في الأدب.

وفي لندن نشر (ليفنجستون) كتابه (رحلات تبشيرية وأبحاث في جنوب إفريقيا).. وهو الكتاب الذي سجل فيه ملاحظاته ومذكراته على مدى نحو 16 عامًا يجوب فيها أعماق القارة من جنوبها إلى وسطها، ثم إلى غربها وشرقها.

ليفنجستون يعود إلى إفريقيا مرة أخرى:

في عام 1858 عاد (ليفنجستون) مرة أخرى إلى إفريقيا في رحلة تبشيرية استعمارية جديدة، مصطحبًا معه بعض المبشرين من الشباب، وكان من بينهم أخوه الأصغر.. وكانت الحكومة البريطانية قد عينته قنصلًا لها في شواطئ إفريقيا الشرقية، على أن يكون قصره بمدينة كليمان (ميناء في موزمبيق على المحيط الهندي)، وعُهد إليه رئاسة البعثات الاستكشافية في شرق ووسط إفريقيا.

رجع (ليفنجستون) إلى نهر الزامبيزي، وكان الهدف هذه المرة هو الوقوف على إمكانية استخدام النهر كطريق للتجارة البريطانية وسط القارة، وخلال تلك الرحلة اكتشف بحيرة شيلوا Chilwa (بين مالاوي وموزمبيق)، ثم بحيرة نياسا (بحيرة مالاوي)، والتي تعد آخر بحيرات الماء العذب الكبرى في جنوب الأخدود الإفريقي العظيم، حيث وصلها في 16 سبتمبر عام 1859، وقد وصف (ليفنجستون) تلك الرحلة في كتابه الذي طبعه في لندن خلال زيارته الثانية لإنجلترا فيما بين عامي 1863، 1865، وقد أسماه: نهر الزامبيزي وروافده The Zambezi and its tributaries.

العودة مرة ثالثة إلى إفريقيا:

في عام 1865 عاد (ليفنجستون) إلى إفريقيا ليواصل استكشافاته، قاصدًا هذه المرة منابع النيل.. وبدأ يتوغل في وسط القارة محاولًا البحث عن علاقة بين نهري النيل والزمبيزي.. هل هما متصلان؟ أم أن الزمبيزي أحد روافد نهر الكونغو؟ وعندئذ انقطعت أخبار (ليفنجستون) مما اضطر الأوربيين إلى إرسال هنري ستانلي للبحث عنه، كما سنرى..

خلال تلك الفترة لاقى (لفنجستون) العديد من المصاعب، إلا أنه لم يتوقف عن البحث.. ففي عام 1867 وصل إلى بحيرتي موريو Mweru وبانجويلا Bangweulu (كلاهما في زامبيا).. وفي عام 1869 وصل إلى مدينة أوجيجي Ujiji، المطلة على بحيرة تنجانيقا، حيث قضى هناك فترة من الزمن قبل أن يبدأ رحلة أخرى طويلة لاستكشاف الأقاليم الواقعة شمال غربي تلك البحيرة..

لقاء ليفنجستون وستانلي:

وفي عام 1871 وقف (ليفنجستون) لأول مرة على شاطئ نهر الكونغو، إلا أنه لم يكن قد توصل إلى رأي حاسم حول علاقة هذه الأنهار بعضها ببعض، وعاد مرة أخرى إلى مدينة أوجيجي، حيث التقى بالرحالة (هنري ستانلي) الذي جاء ليبحث

عنه، كان ذلك في العاشر من نوفمبر من عام 1871.. وما أن رآه ستانلي على شاطئ البحيرة حتى حياه قائلًا: (لابد وأن تكون الدكتور ليفنجستون).

زوّد ستانلي ليفنجستون بالغذاء والدواء، فقد كان منهكًا.. وظل معه إلى أن افترقا في مارس من عام 1872.

وفاة ليفنجستون:

حاول (ليفنجستون) أن يتابع رحلاته، إلا أن المرض كان قد أنهكه.. ومات في الأول من مايو عام 1873 في قرية على شاطئ بحيرة بانجويلو.. وقام محبوه بفصل قلبه عن جسده ودفنوه عند أصل شجرة كان قد مات تحتها، وحفروا على جذع الشجرة كلمات تذكارية تشير إلى المكان الذي مات فيه. أما الجثة فقد حملها اثنان من المخلصين له، كانا يعملان في خدمته، بعد أن وضعوها في الملح حفاظًا لها من التحلل والفساد، وسارا بها آلاف الكيلومترات، وسط الغابات والمستنقعات حتى وصلا ساحل المحيط الهندي، ومن هناك عبرا بالجثة إلى زنجبار، حيث حملت إلى إنجلترا، ليتم دفنها في كنيسة وستمنستر مع الملوك والمشاهير.

أما الشجرة التي دفن قلب (ليفنجستون) أسفلها، فقد قام الإنجليز بعمل نصب تذكاري من الجرانيت مكانها!

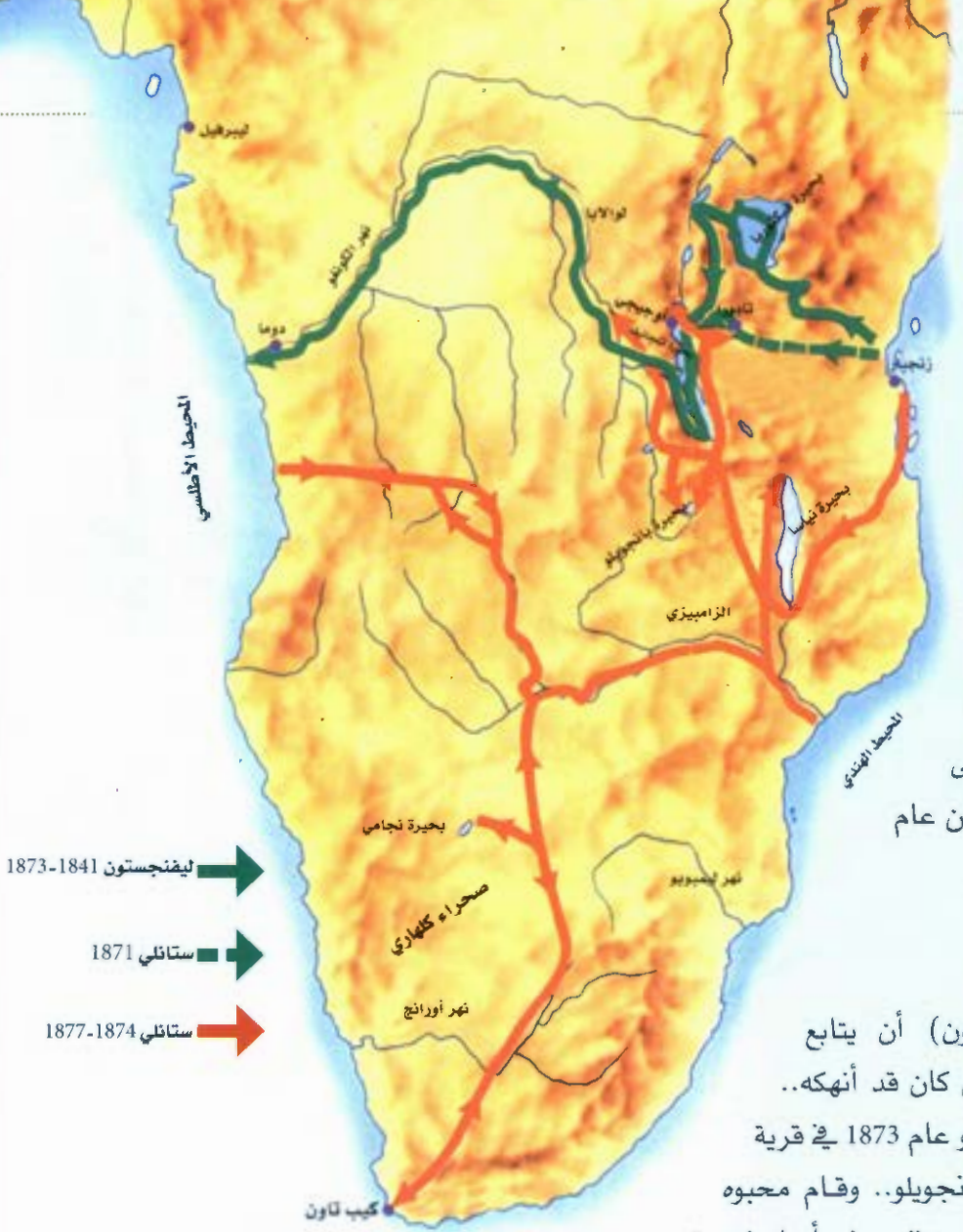

ثانيًا: هنري مورتون ستانلي:

وُلد سير هنري مورتون ستانلي Sir Henry Morton Stanley في ويلز لأسرة فقيرة، لا يُعرف عن والديه شيء.. كان اسمه (جون رولندس) ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره هاجر إلى أمريكا.. ويُقال إنه ذهب إلى هناك خادمًا على متن إحدى السفن.. وفي أمريكا عمل بخدمة تاجر يدعى (ستانلي) ومنه استعار اسمه الذي اشتهر به، ولما نشبت الحرب الأهلية انتظم في سلك الجنود، وعقب الحرب جاء إلى تركيا مراسلًا لإحدى الصحف.

وفي عام 1867 أرسلت بريطانيا حملتها إلى الحبشة، وجاء معها (ستانلي) مراسلًا لصحيفة نيويورك هيرالد NewYork Herald. فأتقن عمله.. ولما عاد من الحبشة أرسلته الصحيفة إلى إسبانيا ليراقب أخبارها.

ستانلي ومهمة البحث عن ليفنجستون:

طُلب من ستانلي الذهاب إلى إفريقيا للبحث عن (ليفنجستون)، فقد انقطعت أخباره لأكثر من عامين.

هنري مورتون ستانلي

قدم ستانلي مصر بعد أن فتحت قناة السويس، ثم سار إلى زنجبار، ومنها إلى إفريقيا، حيث التقى ليفنجستون أواخر عام 1871.. وبقى معه أربعة أشهر.

عاد (ستانلي) إلى بريطانيا عام 1872، وهناك قابلته الملكة وكافأته بالعديد من الهدايا، كما منحته الجمعية الجغرافية وسامها الذهبي.. وهناك قام بنشر كتابه (كيف وجدت ليفنجستون).

العودة إلى إفريقيا ثانية:

أرسلته مجلة الهيرالد مرة أخرى إلى إفريقيا مع حملة الأشانتي، ونشر بعد ذلك كتابًا جمع فيه رسائله من (مجدلة) عاصمة الحبشة، ومن كوماسي عاصمة الأشانتي.

وهناك سمع بموت الطبيب والمبشر (ليفنجستون)، فعزم على مواصلة رحلاته التي لم يحققها في مجاهل إفريقيا.. وكان له ما أراد.

دار (ستانلي) حول بحيرة فيكتوريا، وحول بحيرة تنجانيقا، وضبط خريطتيهما.. وكشف مناطق عديدة من وسط القارة.. حيث أبحر في نهر الكونغو حتى وصل إلى الساحل الغربي للقارة بعد رحلة استمرت نحو ثلاث سنوات.. وصف النهر بأنه يصلح لإبحار السفن، وأن هناك بابًا واسعًا للتجارة، ونشر خطابه الشهير في صحيفة الديلي تليجراف 1877 عن ثروات تلك المنطقة، واختتمه بقوله:

(إن الدولة التي ستسيطر على مجرى النهر ستسيطر تمامًا وتلقائيًا على تجارة أغنى مناطق إفريقيا!!).

رسائل ستانلي تثير نوازع أوربا الاستعمارية:

حركت رسائل ستانلي النوازع الاستعمارية الكامنة في نفوس ملوك وحكام أوربا، وبخاصة (ليوبولد الثاني) ملك بلجيكا.

اعتلى (ليوبولد الثاني)[1] عرش بلجيكا عام 1865، وكان أحد الملوك الذين دعاهم الخديو إسماعيل لافتتاح قناة السويس عام 1869، وكان لما رآه من إسراف وبذخ في أثناء حفل الافتتاح آثار كبيرة حركت كوامن طموحه غير المحدود في حيازة جزء من تلك الثروات الطائلة والسائبة في إفريقيا.

وفي عام 1876 تفتق ذهنه عن فكرة غاية في المكر والدهاء، وهي إنشاء الاتحاد الإفريقي العالمي ذي الأهداف الإنسانية المعلنة، وأهمها: إدخال الحضارة إلى إفريقيا من خلال إنهاء تجارة الرقيق غير المشروعة، واستبدالها بالتجارة المشروعة في الموارد الأولية الإفريقية والبضائع الأوربية المصنعة، وكذا نشر المسيحية للأخذ بيد الإنسان الإفريقي البدائي.

أما الأهداف الحقيقية لهذا الاتحاد، فهي انتزاع بقعة غنية من أرض القارة يسيطر (ليوبولد الثاني) على ثرواتها بصفة شخصية!

وجه الملك الدعوة للمغامرين، والمستكشفين، والمبشرين، والجغرافيين، لكشف تلك القارة.. إلا أن الحكومتين البريطانية والفرنسية تشككتا في نوايا ملك بلجيكا، وكوّن كل منهما جمعية جغرافية منفصلة للقيام بهذه المهمة.

سارع (ليوبولد الثاني) بالتعاقد مع ستانلي باسم الاتحاد، وبعث به إلى الكونغو.

وقبل مغادرة ستانلي بلجيكا، حلّ الملك الاتحاد الإفريقي العالمي، وكوّن بدلًا منه الاتحاد العالمي للكونغو باسم بلاده وتحت سيطرته!

نجح ستانلي خلال خمس سنوات من عقد نحو 450 اتفاقية مع السلاطين الكونغوليين، تم بموجبها وضع مناطق نفوذهم تحت حماية الاتحاد.

ستانلي وأمين باشا:

علمنا من هو ستانلي.. ولكن من هو أمين باشا؟

△ أمين باشا

أمين باشا Emin Pasha (1840 - 1892) واحد ممن ساهم بقسط وافر في اكتشافات إفريقيا.. وتولى إدارة بعض المستعمرات الألمانية بها.. له إسهامات كبيرة في دراسة جغرافية السودان ووسط إفريقيا.

ولد أمين باشا في بولندا من أصل يهودي، واسمه الأصلي (إدوارد شتايتزر).. عمل طبيبًا في ألبانيا أيام كانت خاضعة للحكم العثماني،

(1) من مقال للدكتور أحمد الأمين البشير، مجلة العربي الكويتية، العدد 319 بتصرف.

حيث أطلق عليه الأهالي لقب (الأمين).. انتقل إلى السودان عام 1875، وكانت تحت الحكم المصري آنذاك، وأصبح من أركان حرب العقيد (جوردون) الذي كان مديرًا للمديرية الاستوائية بجنوب السودان عام 1876، ثم تولى حكمها عام 1878 حيث بدأ استكشافاته.

قاومه الدراويش، وكادوا يتغلبون عليه، ويقطعون صلته بمصر، عندئذ قامت الحكومة البريطانية باستدعاء ستانلي وطلبت منه الذهاب إلى أعالي السودان للبحث عن أمين باشا وإنقاذه.. وكانت الحكومة المصرية قد وعدت بمبلغ عشرة آلاف جنيه لهذه الغاية، كما ساهمت بريطانيا بعشرة آلاف أخرى.

وبالفعل ذهب ستانلي إلى هناك، وأنقذ أمين باشا، وعاد به إلى مصر، ورحبت به الحكومة المصرية في احتفال مهيب، وذلك في 20 يناير من عام 1890.

وفي القاهرة كتب ستانلي مذكراته ونشرها في يونيو عام 1890 في كتاب أسماه (في مجاهل إفريقيا) وصدر في مجلدين في كل من بريطانيا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة.

ولما عاد إلى بريطانيا قوبل بحفاوة بالغة، ومنح أرفع الأوسمة والدرجات العلمية، وتوفى هناك في العاشر من مايو عام 1904.

أهم نتائج رحلات ستانلي:

لقد فتحت استكشافات ستانلي وغيره من الرحالة والمغامرين أبواب إفريقيا على مصراعيها أمام التدخل الأوربي الاستعماري.. وما انتهى القرن التاسع عشر إلا وقد وقعت القارة كلها، تقريبًا، تحت السيطرة الأوربية!!

سيطرت بريطانيا على حوض النيل من منبعه حتى مصبه.. بينما تُرك لفرنسا حرية التصرف في المنطقة الواقعة غربي هذا الحوض.. أما الألمان فأخذوا تنجانيقا.. واحتلت بلجيكا الكونغو.. واستولت البرتغال على أنجولا وموزمبيق.

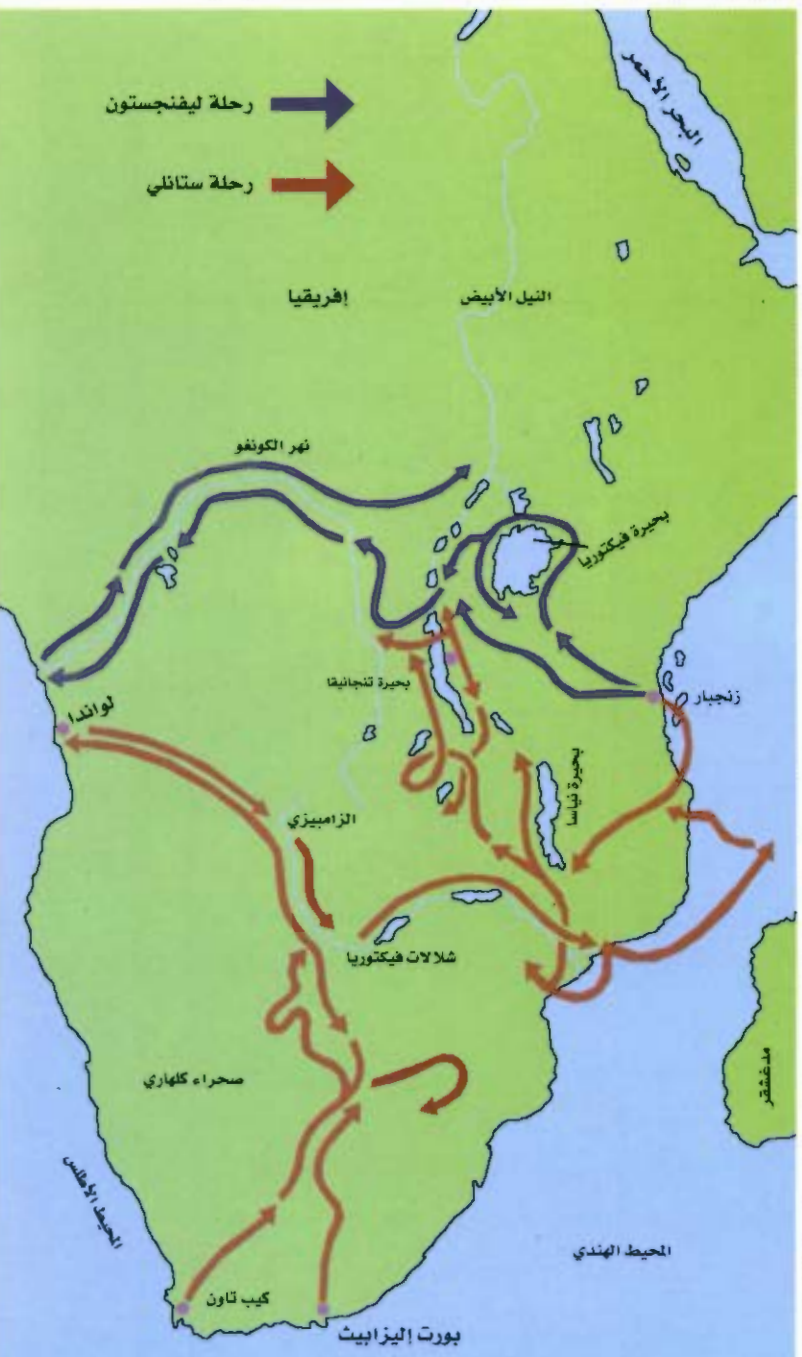

رحلات جورج شوينفورث:

يعتبر الرحالة الألماني جورج شوينفورث George Schweinfurth (1836 - 1925) من أشهر المستكشفين الذين عملوا في منطقة النيل والجانب الشرقي من وسط إفريقيا.

كان (شوينفورث) عالم نبات، ظلَّ فيما بين عامي 1863، 1866 يبحث في نباتات مصر والمناطق المجاورة لها، حيث وصل إلى الخرطوم، ثم إلى جبال الحبشة وبحر الغزال.

لم تقتصر هذه الرحلة التي استغرقت نحو ثلاث سنوات على دراسة النباتات فقط، بل تعدتها إلى دراسة حيوانات تلك المناطق وجبالها وأنهارها. فقد اكتشف نهر ويل Uele (في الكونغو الديمقراطية)، وظن أنه يتصل بنهر شاري ويصب في بحيرة تشاد، وبالطبع ثبت خطأ ذلك فيما بعد.. إلا أنه نال باكتشافه هذا وسام الجمعية الجغرافية الملكية بلندن.

كما اهتم (شوينفورث) بدراسة السكان والقبائل، وكان أول أوربي يكتشف وجود الأقزام في وسط إفريقيا.

جمع (شوينفورث) مذكراته وضمنها كتابه الذي أسماه (قلب إفريقيا) والذي نشره عام 1873، وقد ضمنه أيضًا العديد من الصور والخرائط التي رسمها بيده، إذ كان شوينفورث رسامًا ماهرًا، وكاتبًا بليغًا.

بعد ذلك لم يرجع إلى قلب إفريقيا، بل رحل إلى صحراء ليبيا مع الألماني رولفس جيرارد Rholfs Gerard، وهذا الأخير كان قد وصل واحة الكفرة (في ليبيا) عام 1879.

فيما بين عامي 1876، 1878 قام (شوينفورث) بالعديد من الرحلات في الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية.. وكان في غضون ذلك يقيم في القاهرة، حيث كان قد أسس بها الجمعية الجغرافية عام 1875 تحت رعاية الخديو إسماعيل.

وفي عام 1886 انتقل إلى برلين ولم يغادرها إلا فيما بين عامي 1891، 1894 حيث ذهب إلى إريتريا، ليعود مرة أخرى ليطبع كتابه (قلب إفريقيا) من جديد، بعد أن زوده بالعديد من الإضافات.

رحلات كراف وربمان:

إنهما المستكشفان والمبشران الألمانيان: جوهان لودويج كراف Johann Ludwig Krapf، وجوهان ربمان Johann Rebman.. فقد كان لهما الفضل الأكبر في استكشاف جبال شرق إفريقيا، وإزاحة الغموض عن جبال كينيا وكليمنجارو، والأخدود الإفريقي، تلك الجبال التي ظلت فترة طويلة من الزمن رمزًا للخرافات والأساطير، إذ كان يُعتقد أن الأرواح الشريرة تسكنها، ولا يجرؤ أحد على الاقتراب منها!

ولد كراف في ويرتمبرج Wurttemberg بألمانيا عام 1810، ونشأ متعلقًا بدراسة الإنجيل، ورغب في نشر تعاليمه والتبشير به، وازدادت تلك الرغبة بعد رحلات جيمس بروس في إفريقيا، وعلم منها أن هناك صحراء لم يصل إليها الرجل الأبيض بعد، وعزم على استكشافها والتبشير بالمسيحية بين سكانها.

التحق كراف بكلية التبشير في بازل، ثم بعد ذلك بفرع الجمعية التبشيرية في عدوه (بشمال إثيوبيا).. وهناك تنقل بين بعض القبائل الوثنية يبشر بالمسيحية، إلا أنه لم يجد قبولًا من شيوخ القبائل، فطرد من الحبشة عام 1843.

ذهب كراف إلى زنجبار، وكان يهدف إلى إقامة مركز تبشيري هناك.. وفي زنجبار قوبل كراف بحفاوة بالغة من قبل سلطانها، حتى أنه سلّمه تصريحًا مكتوبًا طالب فيه المسئولين بتسهيل مهمة كراف، وقال السلطان في تصريحه هذا عن كراف: (إنه رجل طيب، يرغب في تحويل العالم إلى عبادة الله، فعاملوه معاملة طيبة، وكونوا في خدمته في كل مكان!).

تمكن كراف بهذا التصريح من التجول بحرية تامة بين القبائل، والتأثير عليها، وإدخال بعضها في المسيحية.

استقر كراف في ممباسا Mombasa (ميناء كيني على المحيط الهندي)، واتخذ منها مقرًا لبعثته التبشيرية، وهناك تمكن من دراسة اللغة السواحلية، وبعض اللهجات الإفريقية.. وهناك أيضًا ماتت زوجته وطفله بعد إصابتهما بالحمى، إلا أن ذلك لم يثنه عن نشاطه التبشيري، خاصة بعد وصول مواطنه وصديقه جوهان ربمان.

درس ربمان في كلية التبشير الكنسية في لندن.. ووصل إلى رابيا Rabia، وعلى الرغم من إصابته بالحمى كصاحبه، إلا أنه واصل في نفس الطريق التي سلكها (ليفنجستون)، وذلك بحثًا عن أماكن مناسبة لإقامة مراكز تبشيرية عليها.. فقد كانت مهمة ربمان الأولى هي التبشير، وكان الإنجيل لا يفارقه في كل تحركاته.

وصل ربمان إلى جبل كدياروKadiaro، وكان أول أوربي يصل إليه.. وكان قد تقرحت قدماه.. وفي العام الثاني قصد جبل كليمنجارو (أعلى جبال إفريقيا، ويقع في تنزانيا).. إلا أن حاكم المنطقة حذره من ذلك، إذ كان يعتقد أن الجبل تسكنه الأرواح الشريرة، وأن الهلاك مصير كل من يحاول الوصول إليه أو تسلقه، بعد أن يتصلب جسمه!

لم يكن ربمان يؤمن بتلك الخرافات، وتمكن من الوصول إلى الجبل، ورؤية قممه المغطاة بالثلوج، على الرغم من وقوعه بالقرب من خط الاستواء. وهنا أدرك ربمان أن السبب في هلاك وتصلب أجسام متسلقي الجبل، إنما هو البرد القارس والثلوج، وليس الأرواح الشريرة، كما كان يُعتقد.

أرسل ربمان تقريرًا إلى الجمعية الجغرافية الملكية بإنجلترا، إلا أن بعض أعضاء الجمعية سخروا من هذا التقرير، واعتبروه من شطحات الخيال العقلي!!

مكث ربمان في تلك المنطقة يباشر نشاطه التبشيري، ويعالج قدميه، ثم عاد إلى جبل كدياروثم إلى رابيا.. وهناك سمع عن وجود منطقة نائية واسعة تقع فيما وراء جبل كليمنجارو (بحيرة تنجانيقا)، إلا أنه لم يتمكن من الوصول إليها، فقد أنهكته الحمى، فمكث في مركز البعثة يواصل الوعظ والتبشير.

كراف مرة أخرى!!

في عام 1849 قام كراف بمسح المنطقة الواقعة جنوب غربي ممباسا بهدف إقامة مراكز تبشيرية للبعثة هناك، ثم عاد باتجاه الشمال الغربي حتى وصل قريبًا من جبل كليمنجارو.

كان كراف على قناعة تامة بصحة تقرير ربمان، لذا، فقد واصل رحلته باتجاه الشمال الغربي حتى وصل كيتوي Kitui (في كينيا حاليًا)، وهناك علم بوجود جبل على مسيرة أسبوع من كيتوي يعرف باسم كيجنيا Kegnia، وفي نهاية عام 1849 تمكن كراف من رؤية المنطقة بوضوح بعد انقشاع السحب، وتوقف المطر، وقال: لاحظت بروزين كبيرين، أو عمودين كما لو كانا يرتفعان فوق جبل ضخم يقع إلى الشمال الغربي من كليمنجارو، وقد غطتهما مادة بيضاء (الثلوج بالطبع).

كرمت ألمانيا كراف، ومنحته الميدالية الذهبية، كما أهدت فرنسا كلًا من كراف وربمان الميدالية الفضية.. وعندما قصد كراف إنجلترا، لم يلق اهتمامًا كبيرًا هناك، على الرغم من عرضه على الجمعية التبشيرية الكنسية إنشاء مجموعة من المراكز للبعثات التبشيرية في إفريقيا.

إلا أن ذلك لا يقلل من أهمية اكتشافات كراف، إذ أنه اكتشف جبل كينيا عن طريق مسح الساحل الشرقي لإفريقيا ابتداءً من ممباسا، ومرورًا بساحل تنزانيا، حتى رأس

جبل كليمنجارو، الذي يقع في شمال شرق تنزانيا، قصده (ربمان) رغم ما أشيع من هلاك من يقصده ويحاول الاقتراب منه.. يتكون الجبل من ثلاث قمم بركانية.

دلجادو Cape Delgado على المحيط الهندي عند حدود موزمبيق.

عاد كراف إلى موطنه ألمانيا، وهناك كرس جهده في ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات الإفريقية، وعاد إلى إفريقيا مرات عديدة، حيث كان هناك صديقه ربمان، وكان قد أصابه العمى، ومع ذلك ظل ربمان يواصل عمله في إفريقيا نحو 30 عامًا.

عاد ربمان إلى ألمانيا عام 1875، ولم يلبث طويلاً حتى مات بالقرب من منزل صديق كراف، الذي مات بعده بخمس سنوات.

فون ديرديكن:

على الرغم من اكتشافات كراف وربمان، إلا أنه لم يتأكد كشف جبل كليمنجارو إلا عام 1861، وذلك عن طريق المستكشف الألماني فون دير ديكن K.K Von der Decken، الذي زار المنطقة مرتين، وتمكن من تسلق الجبل إلا أنه لم يصل إلى خط الثلج.. ومن هناك انطلق ديكن باتجاه جبل كينيا متتبعًا نهر جوبا Juba (يبدأ من إثيوبيا ويخترق الصومال ليصب في المحيط الهندي)، إلا أنه طعن في مدينة بربرة Berbera (في الصومال على خليج عدن) ومات هناك.

أهم نتائج الكشوف الجغرافية لإفريقيا:

كان التقسيم الأوربي لإفريقيا واستعمارها أهم نتائج الكشوف الجغرافية للقارة.. إذ لم تعد إفريقيا قارة مظلمة، كما كان يصفها الأوربيون.. فقد مسحها مغامروهم ومبشروهم، وجابوا أرجاءها، وأجادوا في وصفها وإظهار خيراتها وثرواتها، وأهمية موقعها.. مما أدى إلى التكالب الأوربي لتقسيم القارة واستعمارها.

وخلال فترة وجيزة، ما بين عامي 1876، 1912، خضعت القارة التي تبلغ مساحتها 30.300.000 كيلومتر مربع للاستعمار من قبل 7 دول أوربية هي: بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وإيطاليا، والبرتغال، وبلجيكا، وإسبانيا (مجموع مساحات هذه الدول مجتمعة 2.077.370 كيلومترمربع، أي ما يعادل 80 % من مساحة السودان وحده، أو 7 % من مساحة القارة!!).

عقدت هذه الدول الاستعمارية مؤتمرًا فيما بينها ينظم قواعد اللعبة الاستعمارية في اقتسام القارة.. وتم ذلك على مراحل.

- المرحلة الأولى: فيما بين عامي 1876، 1884، وفيها تم تقسيم القارة إلى مناطق نفوذ، يعترف فيها المتنافسون فيما بينهم- رغم غياب الاحتلال الفعلي- بحق وضع اليد للدولة المعنية.
- المرحلة الثانية: وهي فترة انعقاد المؤتمر من 15 نوفمبر 1884 إلى 26 فبراير 1885، أي نحو مائة يوم، وكانت أغلب الاجتماعات والتسويات قد حدثت خارج أروقة المؤتمر.
- المرحلة الثالثة: وتمتد من عام 1885 إلى عام 1912، وقد تم خلالها تقسيم القارة واحتلالها بالفعل، ولأن هذا التقسيم قد تم، في الغالب، في قاعات الاجتماعات المغلقة في وزارات الخارجية الأوربية، فقد أصبحت الحدود للدول (المستعمرات) الإفريقية مجرد خطوط مستقيمة لا تحكمها اعتبارات جغرافية أو تاريخية أو بشرية، ولعل هذا يفسر ما تعانيه هذه الدول الآن من مشاكل الأقليات، والحروب الأهلية، وانعدام مقومات الأمة الأساسية[1].

(1) من مقال الدكتور أحمد الأمين البشير، في مجلة العربي، العدد 319، يونيو 1975 (بتصرف).